المكتبة الأولى للأسرة
(٥)

مُختصر
الداء والدواء

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب
ابن قيم الجوزية
(٦٩١هـ - ٧٥١هـ)

اختصره
أ.د. أحمد بن عثمان المزيد
أستاذ الدراسات الإسلامية. جامعة الملك سعود

مدار الوطن للنشر

المكتبة الأولى للأسرة

مختصر
الداء والدواء

تأليف

ابن قيم الجوزية
الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر
٦٩١ - ٧٥١ هـ

اختصره

د. أحمد بن عثمان المزيد

غفر الله له ولوالديه ولزوجته
ولأبنائه والمسلمين

مدار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الحادية عشرة

١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م

مدار الوطن للنشر

الدائري الشرقي - مخرج ١٥

الرياض - الملز - ٢كم غرب أسواق المجد

ت : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس : ٤٧٢٣٩٤١

الموقع على الإنترنت : www.madaralwatan.com

البريد الإلكتروني : pop@madaralwatan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

فإن الأسرة هي المحضن الأساس للأفراد: تنشئةً وتربيةً ورعايةً؛ وهي في هذه المهمات الجسيمة تواجه تحديات كثيرة وكبيرة من الخطورة بمكان، مما يستدعي تزوّدها بزاد من العلم والهدى تهتدي به في مواجهة تلك التحديات؛ فليس من شكٍّ في أنّ العلم يعدُّ من أهم دعائم بناء الأسرة المسلمة.

ولا شكَّ أيضًا أن علم السابقين فيه من البركة والفائدة والعمق والشمول أكثر مما في علم المتأخرين، ومن هنا جاءت فكرة هذا المجموع المبارك الذي يحتوي على ستة كتب، وهي:

أولاً: «**مختصر رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**» هذا الكتاب المبارك الذي كتب الله له القبول والانتشار، فيه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المرتبة على أهم الموضوعات التي تحتاجها الأسرة المسلمة في عمل الدين والدنيا؛ ففيه عقائد، ورقائق، وآداب شرعية، وأحكام فقهية؛ فهو خير أنيس وجليس.

ثانيًا: «**هدي محمد ﷺ**» المنتقى من «زاد المعاد»[1] فيه ما تنشده الأسرة المسلمة من معرفة لهدي نبيها محمد ﷺ في: عباداته، ومعاملاته، وأخلاقه؛ لتهتدي بهديه، وتستن بسنته، وتقتفي أثره صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: «**مختصر حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**» إذا طالعته الأسرة المسلمة

(١) كان للقبول الطيب والمبارك لهذا الكتاب حيث بيع منه ٨٠٠٠٠٠ نسخة وتُرجم لأهم اللغات، الأثر البالغ في حرصي على إخراج هذه الكتب في سلسلة «مكتبة الأسرة المسلمة» وبيعها بسعر مخفض دعماً من المختصِر والطابع والناشر، وأن تكون حقوقها لكل مسلم ليسهل توزيعها في جميع أنحاء العالم.

اشتاقت إلى نعيم الجنة، وتطلعت إلى هذا الفوز العظيم، وبهذا تقوى الإرادة والعزيمة، ويقوى الباعث في القلب للفوز بذلك النعيم المقيم.

رابعًا: «**مختصر عدة الصابرين**» مما تشتد حاجة الأسرة إليه؛ لأنه في طريقها إلى الله تعالى تتعرض لأنواعٍ من المحن والابتلاءات، من فَقْد عزيزٍ، أو خسارةٍ ماديةٍ، وقد تمرُّ بها كذلك أيام السعادة والفرح والمسرات، وللمؤمن موقفٌ عند الشدة وعند النعمة، وهو الصبر والشكر.

خامسًا: «**مختصر الداء والدواء**» من الأهمية بمكان؛ لأن الذنوب والمعاصي من أهم أسباب فساد الأسر وخراب البيوت، فكان من المناسب اختصاره؛ لتحذر الأسرة المسلمة من الوقوع في هذه الآفات، وتتذكر عواقبها وآثارها السيئة على الفرد والأسرة والمجتمع، بل على الأمم والشعوب.

سادسًا: «**مختصر الفوائد**» مناسبٌ لأفراد الأسرة المسلمة؛ لشغل أوقات الفراغ بما يبعث على النشاط ويدفع الملل، لما فيه من الفوائد اللطيفة، والمعاني الطريفة، وما على القارئ إلَّا أن ينتقي ما شاء منها.

وبعد... فهذه نبذة مختصرة عن هذا المجموع المبارك، نسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفه ومعدّه وقارئه وكل مَنْ ساهم في نشره..

د. أحمد بن عثمان المزيد
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة المشارك
كلية التربية – جامعة الملك سعود
dralmazyad@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سُئِلَ الشَّيخُ الإمامُ أبوعبد الله محمَّدُ ابنُ الشيخِ الصَّالِحِ تقيِّ الدينِ أبي مُحمدٍ أبي بكرٍ، المعروفُ بابنِ قيِّمِ الجوزيَّةِ.

ما تقولُ السَّادةُ العلماءُ، أئمَّةُ الدينِ رضيَ اللهُ عنهمْ أجمعينَ في رجلٍ ابتُليَ ببليةٍ، وعلمَ أنَّها إنِ اسْتمرَّتْ بهِ أفسدتْ دنياهُ وآخرتهُ، وقدِ اجْتهدَ في دفعِها عن نفسِه بكلِّ طريقٍ، فما تزدادُ إلَّا توقُّدًا وشدّةً، فما الحيلةُ في دفعِها؟ وَمَا الطَّريقُ إلى كشْفِها؟ فرحمَ اللهُ منْ أعانَ مُبْتَلًى، واللهُ في عونِ العبْدِ مَا كانَ العبْدُ في عوْنِ أخيهِ، أفتونَا مأجورينَ رحمكمُ اللهُ.

فكتبَ الشَّيخُ رضيَ اللهُ عنهُ:

الحمدُ لله، أمَّا بعْدُ:

* ثَبتَ في صَحيحِ البخاريِّ[1] مِنْ حديثِ أبي هريرةَ ﵁ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: **"مَا أَنْزَلَ اللهُ داءً إلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً"**.

* وَفِي صحيحِ مسلم[2] منْ حديثِ جابرِ بْنِ عبْدِ الله قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: **"لِكُلِّ داءٍ دَوَاءٌ؛ فَإذَا أُصيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بإذْنِ اللهِ"**.

وهذا يعمُّ أدواءَ القلْبِ والرُّوحِ والبدنِ وأدويتَها، وقدْ جعلَ النبيُّ ﷺ الجهلَ داءً، وجعلَ دواءهُ سؤالَ العُلماءِ.

---

(١) البخاري (٥٦٧٨).

(٢) مسلم (٢٢٠٤).

وقدْ أخبرَ سبحانهُ عنِ القرآنِ أنَّه شفاءٌ، فقالَ تعالَى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

و﴿مِن﴾ هاهنَا لبيانِ الجنسِ لا للتبعيضِ؛ فإنَّ القرآنَ كلَّه شفاءٌ، كمَا قالَ في الآيةِ المتقدِّمةِ، فهوَ شفاءٌ للقلوبِ منْ داءِ الجهلِ والشَّكِّ والرَّيبِ، فلمْ ينزِّلِ اللهُ سبحانَه وتعالى منَ السَّماءِ شفاءً قطُّ أعمَّ ولا أنفعَ ولا أعظمَ ولا أنجعَ في إزالةِ الدَّاء منَ القُرْآنِ.

وقد ثبتَ في «الصحيحينِ»[1] من حديثِ أبي سعيدٍ قالَ: «**انطلقَ نفرٌ من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ في سفرةٍ سافرُوهَا، حتَّى نزلُوا علَى حيٍّ من أحياءِ العربِ فاستضافوهُمْ، فأبَوْا أنْ يضيِّفوهُمْ، فلُدِغَ سَيِّد ذلكَ الحيِّ، فسعوْا لهُ بكلِّ شيءٍ لا ينفعهُ شيءٌ، فقالَ بعضهُم: لَوْ أتيتمْ هؤُلاءِ الرَّهْطَ الذينَ نزلُوا على حيِّنا، لعلَّهُ أنْ يكونَ عِنْدَ بعضِهم شيءٌ، فأتوهُمْ، فقالوا: يا أيُّها الرَّهْطُ، إنَّ سيِّدنا لُدِغَ، وسعيْنَا له بكلِّ شيءٍ لا ينفعهُ شيءٌ. فهل عندَ أحدٍ منكمْ من شيءٍ؟ فقال بعضهم: نعم واللهِ إنِّي لأرْقِي، ولكنْ واللهِ لقدِ اسْتضفناكُمْ فلمْ تضيِّفونَا، فمَا أنا براقٍ حتى تجعلُوا لي جُعْلًا، فصالحُوهُمْ على قطيعٍ من الغنمِ، فانطلقَ يتفلُ عليهِ ويقرَأُ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فكأنَّما نَشِطَ من عِقالٍ. فانطلقَ**

(١) البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

يمْشي، وما بِهِ قَلَبَةٌ[1]، فأوفوهُمْ جُعْلَهمُ الذي صالحوهُمْ عليهِ. فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقَى: لا نفعلُ حتى نأْتي النَّبيَّ ﷺ فنذكر له الذي كانَ، فننظرُ بِمَا يأمرُنا، فقدمُوا على رسولِ الله ﷺ فذكرُوا له ذلكَ فقالَ: وما يُدريكَ أنَّها رُقْيةٌ؟ ثمَّ قال: قد أصبتُمْ، اقتسمُوا واضربُوا لي معكمْ سهْمًا».

فَقدْ أثَّر هذَا الدَّواءُ في هذَا الدَّاءِ وأزالهُ حتَّى كأنْ لمْ يكنْ، وهوَ أسهلُ دواءٍ وأيسرُه، ولَو أحسنَ العبدُ التَّداويَ بالفاتحةِ لرأى تأثيرًا عَجيبًا فِي الشِّفاءِ.

ومكثتُ بمكةَ مدَّةً يعتَرِيني أدواءُ ولا أجدُ طبيبًا ولا دواءً، فكنتُ أعالجُ نفسِي بالفاتحةِ، فأرَى لهَا تأثيرًا عجيبًا، فكنْتُ أصفُ ذلكَ لمنْ يشتكِي ألمًا، فكانَ كثيرٌ منهمْ يبْرأُ سريعًا.

ولكنْ هاهنَا أمرٌ ينبغِي التفطُّنُ له، وهوَ أنَّ الأذْكارَ والآياتِ والأدعيَّةَ الَّتي يُستشفى بها ويرقَى بهَا، هي في نفسِها نافعةٌ شافيةٌ، ولكنْ تستدعِي قبولَ المحلِّ، وقوَّةَ همَّةِ الفاعلِ وتأثيرِهِ، فمتَى تخلَّفَ الشفاءُ كانَ لضعفِ تأثيرِ الفاعلِ، أو لعدمِ قبولِ المحلِّ المنفعلِ، أو لمانعٍ قويٍّ فيه يمنعُ أن ينجعَ فيهِ الدَّواءُ.

وقالَ أبُو ذرٍّ: "يَكْفِي منَ الدُّعاءِ معَ البرِّ، ما يكفِي الطعامَ منَ الملحِ"

* * *

(١) قلبة: أي ألم وعلة. انظر النهاية (٤/ ٩٨).

فصل

[الدُّعاءُ مِنْ أنْفعِ الأدويةِ]

والدُّعاءُ مِنْ أنفعِ الأدويةِ، وهو عدوُّ البلاءِ، يدافعُه ويعالجُه، ويمنعُ نزولَه ويرفعُه، أو يخفِّفُه إذا نزلَ، وهوَ سلاحُ المؤْمنِ.

ولهُ معَ البلاءِ ثلاثةُ مقاماتٍ:

- **أحدُها**: أنْ يكونَ أقوى منَ البلاءِ فيدفعُه.
- **الثَّاني**: أن يكونَ أضْعفَ منَ البلاءِ فيقْوَى عليهِ البلاءُ، فيصابُ بِهِ العبْدُ، ولكنَّه قدْ يخفِّفُه وإنْ كانَ ضعيفًا.
- **الثَّالثُ**: أنْ يتقاومَا ويمنعَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَهُ.

ومنْ أنفعِ الأدويةِ: الإلحاحُ في الدُّعاءِ:

* وقدْ روَى ابْنُ ماجه فِي سننهِ(1) منْ حديثِ أبِي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **"مَنْ لَمْ يَسْألِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ"**.

* * *

فصل

[مِنَ الآفاتِ الَّتِي تمنعُ قبولَ الدُّعاءِ]

ومنَ الآفاتِ الَّتِي تمنعُ ترتُّبَ أثرِ الدُّعاءِ عليْهِ: أَنْ يستعجلَ العبدُ، ويستبْطِئَ الإِجابَةَ، فيستحسرَ ويَدَعَ الدُّعاءَ، وهو بمنزلةِ مَنْ بَذَر بذرًا أَو

---

(1) ابن ماجه (٣٨٢٧).

غَرس غَرسًا، فجعلَ يَتعاهدُه ويسْقِيه، فلمَّا استبطَأَ كمالَه وإدراكَه تركَه وأهْملَه.

* وفي صحيحِ البُخاريِّ[1] مِن حديثِ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: "يُسْتجابُ لأحدِكُمْ ما لَمْ يعجلْ، يقولُ: دعوتُ فلمْ يُسْتَجَبْ لِي".

* * *

فَصْل

[حضورُ القلبِ مع الدُّعاءِ]

وإذَا جُمِعَ مع الدُّعاءِ حضورُ القلْبِ وجمعيَّتُهُ بكلِّيَّتِه على المطلوبِ، وصادفَ وقتًا من أوقاتِ الإجابةِ السِّتَّة وهِي:

الثُّلثُ الأخيرُ من الليْلِ، وعندَ الأذانِ؛ وبين الأذانِ والإقامةِ، وأدبارُ الصَّلواتِ المكتوباتِ، وعندَ صعودِ الإمامِ يومَ الجمعةِ على المنْبرِ حتَّى تُقْضَى الصلاةُ، وآخرُ ساعةٍ بعدَ العصْرِ من ذلك اليوْمِ.

- وصادفَ خُشوعًا في القلْبِ، وانْكسارًا بينَ يدي الربِّ، وذُلًّا له وتضرُّعًا ورِقَّةً.
- واستقْبلَ الداعي القبْلَةَ.
- وكانَ علَى طهارةٍ.
- ورفعَ يديْهِ إلى الله.
- وبدأَ بحمْدِ الله والثَّناءِ عليْهِ.

---

(١) البخاري (٦٣٤٠).

- ثُمَّ ثنّى بالصَّلاةِ عَلَى محمَّدٍ عبْدِه ورسولِهِ ﷺ.
- ثُمَّ قدَّم بيْنَ يدَيْ حاجتِه التوْبةَ والاسْتغفارَ.
- ثُمَّ دخلَ على الله، وألحَّ عليْهِ في المسْألةِ، وتملَّقه ودعاهُ رغْبةً ورهْبةً.
- وَتوسَّلَ إليْهِ بأسْمائِهِ وصفاتِهِ وتوْحيدِهِ.
- وقدَّمَ بينَ يديْ دعائِهِ صدقةً، فإنَّ هذا الدُّعاءَ لا يكادُ يُرَدُّ أبدًا، ولا سيَّما إنْ صَادف الأدْعِيةَ الَّتي أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّها مظنَّةُ الإجابةِ، أَو أنَّها متضمِّنةٌ للاسْمِ الأعْظمِ.

* **فمنْها مَا فِي السُّننِ وصحيحِ ابْنِ حبَّان**[1] **من حديثِ عبْدِالله بن بُريْدةَ، عن** أبيهِ أنَّ رسولَ الله ﷺ سمعَ رجُلًا يقولُ: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ بأنِّي أشهدُ أنَّك أنت اللهُ لا إلهَ إلَّا أنتَ، الأحَدُ الصَّمدُ الَّذِي لم يَلِدْ ولمْ يُولدْ ولم يكُنْ لهُ كُفوًا أحدٌ، فقالَ: **"لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِالاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ"** وَفِي لفظٍ: **"لقدْ سألَ اللهَ باسمِهِ الأعْظمِ"**.

* **وفي جامعِ التِّرمذيِّ، وصحيحِ الحاكمِ**[2] **من حديثِ سعْدِ بْنِ أَبِي وقَّاصٍ عنِ** النَّبيِّ ﷺ قالَ: **"دَعْوَةُ ذِي النُّونِ، إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحوْتِ** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، **إنَّه لمْ يَدْعُ بها مسلمٌ فِي شيءٍ قطُّ إلَّا استجابَ اللهُ لهُ"**.

---

(١) أبوداود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، والنسائي في الكبرى (١٩٩٨)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وابن حبان (٨٩١).
(٢) الترمذي (٣٥٠٥)، والحاكم (١/ ٥٠٥).

* وفِي الصَّحيحينِ(1) من حديثِ ابنِ عبَّاسٍ: "أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يقولُ عندَ الكربِ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ العرشِ العظيمِ، لَا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ السَّمَواتِ السَّبْعِ وربُّ الأرضِ وربُّ العرشِ الكريمِ".

* وفي مسند الإمام أَحْمَدَ(2) أيضًا منْ حديثِ عبدِ الله بنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: "مَا أصابَ أحَدًا قَطُّ هَمٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللهمَّ إنِّي عبدُكَ ابنُ عبدِكَ ابنُ أمتِك، ناصيتِي بيدِك، ماضٍ فِيَّ حكمُكَ، عدْلٌ فِيَّ قضاؤُكَ، أسألُك اللهمَّ بكلِّ اسْمٍ هو لكَ، سمَّيْتَ به نفسَك، أوْ علَّمْتَه أحدًا مِن خلقِك، أوْ أنزلتَه فِي كتابِك أوْ استأْثرْتَ بهِ فِي علمِ الغيبِ عندكَ أنْ تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبِي، ونورَ صدرِي، وجَلاءَ حزنِي، وذهابَ همِّي، إلَّا أذهبَ اللهُ عزَّ وجلَّ همَّهُ وحزنَه، وأبدلَه مكانَه فرحًا، فقيلَ: يا رسولَ الله، أَلَا نتعلَّمُها؟ قالَ: بلَى ينبغِي لمنْ سمعَها أنْ يتعلَّمَها".

* * *

فصل
[شُروطُ الدُّعاءِ المقبولِ]

إذَا كانَ الدُّعاءُ فِي نفسِه غيرَ صالحٍ، أو الدَّاعي لَمْ يجمَعْ بين قلبِه ولسانِه فِي الدُّعاءِ، أو كَان ثَمَّ مانعٌ منَ الإجابةِ لمْ يحصلِ الأثرُ.

---

(1) البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).

(2) المسند (١/ ٣٩١، ٤٥٢).

ولقدْ دلَّ العقلُ والنَّقْلُ والفطرُ على أنَّ التقرُّبَ إلَى ربِّ العالمينَ، وطلبَ مرضاتِه، والبرَّ والإحسانَ إلَى خلقِه منْ أعظمِ الأسبابِ الجالبَةِ لكلِّ خيرٍ، وأضدادُها منْ أكبرِ الأسبابِ الجالبَةِ لكلِّ شرٍّ، فما استُجلِبتْ نِعمُ اللهِ تعالَى واستُدْفعَتْ نقمُه بمثلِ طاعتِه والتقرُّب إليْهِ، والإحْسانِ إلَى خَلْقِه.

* * *

فصل
[الفرقُ بيْنَ حُسْنِ الظنِّ والغُرورِ]

كثيرٌ منَ الجهَّالِ اعتمدُوا علَى رحمَةِ اللهِ وعفوِه وكرمِه، وضيَّعُوا أمرَه ونهيَه، ونسُوا أنَّه شديدُ العقابِ، وأنَّه لا يردُّ بأسُه عن القومِ المجرمينَ، ومنِ اعتمدَ على العفوِ معَ الإصرارِ فهوَ كالمعاندِ.

* **قالَ معروفٌ**: رجاؤُك لرحمَةِ منْ لَا تطيعُه من الخذلانِ والحمقِ.

* **وكانَ يقولُ**: إنَّ قومًا ألهتهمْ أمانيُّ المغفرةِ حَتَّى خرجُوا منَ الدُّنيا بغيرِ توبةٍ، يقولُ أحدهمْ: لأنِّي أُحسِنُ الظنَّ بربِّي، وكذبَ، لو أحسنَ الظنَّ لأحسنَ العملَ.

وقدْ ثبتَ فِي الصَّحيحيْنِ[1] مِنْ حديثِ أسامةَ بن زيدٍ، قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: "**يُجاءُ بالرَّجلِ يومَ القيامةِ فَيُلْقَى فِي النار، فتَنْدَلِقُ أقْتَابُ بطنِه فيَدُورُ فِي النَّارِ كما يدُورُ الحمارُ برَحَاه، فيطيفُ به أهلُ النَّارِ، فيقولونَ: يَا فُلانُ، ما أصابَكَ؟! ألَم تَكُنْ تأمُرُنَا بالمعروفِ وتنْهانَا عنِ المنكرِ؟! فيقولُ: كُنتُ**

(١) البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم(٢٩٨٩).

آمرُكُمْ بالمعروفِ ولا آتيهِ، وأنْهاكُمْ عنِ المنكرِ وآتيهِ".

وفي المسْند[1] أيضًا مِن حديثِ ابنِ مسعودٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: "إيَّاكُمْ ومحقَّرَاتِ الذُّنوبِ، فإنَّهنَّ يجتمعْنَ على الرَّجلِ حتَّى يهلكنَه"، وضربَ لهنَّ رسولُ الله ﷺ مثلًا، كمثلِ قومٍ نزلُوا أرضَ فلاةٍ، فحضرَ صَنيعُ القوْمِ، فجعلَ الرَّجلُ ينطَلِقُ فيجيءُ بالعُودِ، والرجلُ يَجيءُ بالعُودِ، حتَّى جمعُوا سوادًا وأجَّجُوا نارًا، فأنضَجُوا ما قَذَفُوا فِيها.

وفي صحيحِ البخاريِّ[2] منْ حديثِ أبي هريرةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: "مَنْ كانتْ عندَه لأخيهِ مظْلمةٌ فِي مالٍ أو عِرْضٍ فليأتِه، فليستحلَّهَا منْه قبلَ أنْ يؤخذَ وليسَ عنْده دينارٌ ولا دِرْهمٌ، فإنْ كانتْ لهُ حسناتٌ أُخِذَ من حسناتِه فأُعْطِيَها هذا، وإلا أُخِذَ مِنْ سيِّئاتِ هَذا فطُرِحَتْ عليْهِ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ".

* وربَّما اتَّكل بعضُ المغترِّينَ علَى ما يرَى منْ نعمِ الله عليهِ في الدُّنيا وأنَّه لا يُغيِّر مَا به، ويظنُّ ذلكَ أنَّه من محبَّةِ الله لَهُ، وأنَّه يعطِيه في الآخرةِ أفضلَ منْ ذَلِكَ، وَهَذَا مِنَ الغُرُورِ.

* وَقالَ بعضُ السَّلَفِ: إذَا رأيتَ اللهَ يتابعُ عليكَ نعمهُ وأنتَ مُقيمٌ علَى معاصِيه فاحذَرْه؛ فإنَّما هُو استِدْراجٌ مِنه يستدْرِجُك بِه.

* وقالَ بعضُ السَّلفِ: رُبَّ مسْتدْرَجٍ بنعمِ الله عليهِ وهوَ لا يعلَم، وَربَّ مغرورٍ بستْرِ الله عليهِ وهوَ لا يعلَم، ورُبَّ مفتونٍ بثناءِ النَّاسِ عليْهِ وهُوَ لَا يعلَم.

---

(١) المسند (١/ ٤٠٢).

(٢) البخاري (٢٤٤٩).

فصل
[أَعظَمُ النَّاسِ غُرورًا]

أعظمُ النَّاسِ غُرورًا مَن اغترَّ بالدنيَا وعاجلِها، فآثرَهَا على الآخرةِ، ورضِي بِها مِنَ الآخرَةِ، حتَّى يقول بعْضُ هؤلاءِ: الدُّنْيَا نقدٌ، والآخرةُ نسيئةٌ، والنَّقدُ أنفعُ منَ النسيئةِ.

وهذَا منْ أعظمِ تلْبيسِ الشَّيْطانِ وتسويلِه، والبهائِمُ العجمُ أعقلُ من هؤلاءِ؛ فإنِ البهيمةَ إِذَا خافتْ مضرَّة شيءٍ لم تُقْدِمْ عليْهِ ولو ضُرِبَتْ، وهؤُلاءِ يُقْدِمُ أحدُهم على عطبِه، وهو بيْنَ مصدِّقٍ ومكذِّبٍ.

فهذَا الضَّرْبُ إن آمنَ أحدهمْ باللهِ ورسولِه ولقَائِه والجزاءِ، فهُوَ مِنْ أعظمِ النَّاسِ حسرةً؛ لأنَّه أقدمَ علَى علْمٍ، وإنْ لم يؤمنْ باللهِ ورسولِه فأبعدُ لَهُ.

* ومنْ حديثِ المستَوْرِدِ بْنِ شدَّادٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **"ما الدُّنْيا فِي الآخِرةِ إلَّا كما يُدخِلُ أحدُكُمْ أصْبعَهُ في اليَمِّ، فلينظُرْ بِمَ يرْجعُ؟"**[1].

وإذَا تأمَّل الإنسانُ حالَه مِن مبْدَأ حالة كونِه نُطفةً إِلى كمالِه واستِوائِه تبيَّنَ لَهُ أنَّ مَن عنيَ بِه هذهِ العنايةَ، ونقلَه في هذه الأحوالِ، وصرَّفهُ في هذهِ الأطْوارِ، لا يليقُ به أنْ يُهملَه ويتركَه سُدىً، لا يأمرُه ولا ينْهَاه ولا يعرِّفُه حُقوقَه عليْهِ، ولا يُثيبُه ولا يُعاقبه.

فقد تبيَّن الفرقُ بينَ حسنِ الظنِّ والغرورِ، وأنَّ حسنَ الظنِّ إن حمَلَ

---

(١) مسلم (٢٨٥٨).

علَى العملِ وحثَّ عليهِ وساقَ إليْهِ فهُو صحيحٌ، وإنْ دَعَا إلى البَطَالةِ والانهماكِ في المعاصِي فهُوَ غُرورٌ، وحُسْنُ الظنِّ هو الرَّجاءُ؛ فمنْ كَانَ رجاؤُه هَاديًا لهُ إلى الطَّاعةِ، وزَاجِرًا له عنِ المعصيةِ؛ فهوَ رجاءٌ صحيحٌ، ومنْ كانتْ بطالتُهُ رجاءً، ورجاؤُه بطالةً وتفرِيطًا؛ فَهُو المغْرُورُ.

وسِرُّ المسألة: أَنَّ الرَّجاءَ وحُسْنَ الظنِّ إنَّما يكونُ معَ الإتيانِ بالأسبابِ الَّتي اقتضتْها حكمةُ اللهِ في شرعِه، وقدرِه، وثوابِه، وكرامتِه، فيأْتي العبدُ بها ويُحسنُ ظنَّهُ بربِّه، ويرجُوه أَنْ لا يَكِلَهُ إليهَا، وأنْ يجعلَها مَوْصُولةً إِلَى مَا ينفعُه، ويضربُ عما يعارضَها ويبطلُ أثرَها.

* * *

فَصْلٌ
[بينَ الرَّجاءِ والأمانِيِّ]

وممَّا ينبغِي أن يعلمَ أَنَّ منْ رجا شيئًا استلزمَ رجاؤُه ثلاثةَ أُمورٍ:

- **أحدُها**: محبَّةُ ما يرجُوهُ.
- **الثَّانِي**: خوفُه من فواتِه.
- **الثَّالثُ**: سعيُه في تحصِيلِه بحسبِ الإمْكَانِ.

وأمَّا رجاءُ، لا يُقارِنُه شيءٌ مِنْ ذلكَ فهُو منْ بابِ الأَمَاني، والرَّجاءُ شيءٌ والأَمَانِي شيءٌ آخرُ؛ فكلُّ رَاجٍ خائِفٌ، والسَّائِرُ عَلَى الطَّريقِ إذا خافَ أسرعَ السيرَ مخافةَ الفواتِ.

وفي "جامعِ الترمذيِّ"[1] منْ حديثِ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: "مَنْ خَافَ أدْلَجَ، ومنْ أدلجَ بلغَ المنزلَ، أَلَا إنَّ سلعةَ الله غاليةٌ، أَلَا إنَّ سلعةَ الله الجنَّةُ".

ومَنْ تأمَّلَ أحوالَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهمْ وجدهمْ في غايةِ العملِ مع غايةِ الخوفِ، ونحنُ جمعنَا بَين التقصيرِ - بلِ التفريطِ - والأمْنِ.

* فهذَا الصدِّيقُ ﷺ يقولُ: "وددتُ أنِّي شعرةٌ في جَنْبِ عبدٍ مؤمن[2]".

وذُكرَ عنهُ أنَّه كانَ يمسكُ بلسانِهِ ويقولُ: "هذَا الَّذي أوردنِي المواردَ[3]".

* وهذَا عمر قرأَ سُورة الطُّورِ حتَّى إذا بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧] بَكى واشتدَّ بكاؤُه حتَّى مرضَ وعادُوه.

وكانَ يمرُّ بالآيةِ في وردِه بالليلةِ فتخيفُه، فيبقَى في البيتِ أيامًا يُعاد، يحسبُونه مريضًا.

وكانَ فِي وجْهه ﷺ خَطَّان أسْودان من البكاءِ[4].

* وهذا عثمانُ بنُ عفانَ ﷺ كان إذا وقفَ علَى القبرِ يبكِي حتى يبلَّ لحيتَه. وقال: "لو أنَّنِي بين الجنَّةِ والنَّارِ لا أدرِي إلى أيتهما يُؤمَرُ بي، لاخترتُ أنْ أكونَ رمادًا قبلَ أنْ أعلَم إلى أيتهِما أصيرُ"[5].

---

(١) الترمذي (٢٤٥٠) وقال: هذا حديث غريب.

(٢) الزهد لأحمد ص(١٠٨).

(٣) الزهد لأحمد ص(١٠٩).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٥١)، شعب الإيمان (١/ ٤٩٣) فضائل الصحابة (١/ ٢٥٣).

(٥) حلية الأولياء (١/ ٦٠).

* **وهذا عليُّ بنُ أبي طالبٍ** ﷺ وبكاؤه وخوفه، وكان يشتدُّ خوفُه مِن اثنتَيْنِ: طُولِ الأملِ، واتِّباعِ الهوَى، قال: "فأمَّا طولُ الأملِ فيُنْسِي الآخِرةَ، وأمَّا اتِّباعُ الهوَى فيصدُّ عنِ الحقِّ، ألَا وإنَّ الدنيَا قد ولَّتْ مُدبِرةً، والآخرةُ مقبلةٌ، ولكلِّ واحدةٍ بنُون، فكُونوا مِن أبْناءِ الآخِرَةِ، وَلَا تكونُوا من أبْناءِ الدنْيا؛ فإنَّ اليوْمَ عملٌ ولا حسابَ، وغدًا حسابٌ ولا عملَ"(١).

* **وَهَذَا أَبُو الدَّرداء** ﷺ كَانَ يقُولُ: "إِنَّ أشدَّ مَا أخافُ عَلَى نفْسِي يومَ القيامةِ أنْ يُقالَ لِي: يَا أبَا الدَّرداءِ، قدْ علمتَ، فكيفَ عملتَ فيمَا علمتَ؟"(٢).

* **وقال ابن أبي مُلَيْكَةَ**: أدركتُ ثلاثينَ منْ أصحابِ النبيِّ ﷺ كلُّهم يخافُ النِّفاق على نفسِه، مَا منهُمْ أحدٌ يقولُ إنَّه عَلَى إيمانِ جبريلَ وميكائيلَ.

* **وَقَالَ البخاريُّ في صحيحِه**: بابُ خوفِ المؤمنِ منْ أنْ يحبطَ عملُه وهُو لا يشعر.

* * *

فصل
[عَوَاقِبُ المعَاصِي على الأمَمِ السَّابِقَة]

فمما ينْبغي أنْ يُعلَم: أنَّ الذُّنوبَ والمعَاصِي تضُر ولا بدَّ، وأنَّ ضَرَرَها في القلْبِ كضررِ السُّمومِ في الأبْدانِ، علَى اختلافِ درجاتِها في الضَّررِ، وهلْ في الدُّنيا والآخرةِ شرٌّ وداءٌ إلَّا سببُه الذُّنوبُ والمعاصِي؟

(١) حلية الأولياء (١/ ٧٦)، فضائل الصحابة (١/ ٥٣٠). الزهد لابن حنبل (١/ ١٣٠).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٧٥).

- فَما الَّذي أخرجَ الأبوينِ منَ الجنةِ، دارِ اللَّذَّةِ والنَّعيمِ والبهجةِ والسُّرورِ، إلى دارِ الآلامِ والأحزانِ والمصائبِ؟

- وَمَا الَّذِي أخْرجَ إبليسَ منْ مَلكُوتِ السَّماءِ وطردَهُ ولعنَهُ، ومسَخَ ظاهرَهُ وباطنَهُ فجعلَ صورتَهُ أقْبَحَ صورةٍ وأشنَعها، وباطنَهُ أقبح مِنْ صورتِه وأشْنعَ.

- ومَا الَّذِي غرَّقَ أهلَ الأرضِ كُلَّهمْ حتَّى عَلا الماءُ فوقَ رُءوسِ الجبالِ؟ وما الَّذِي سلَّطَ الرِّيحَ على قومِ عادٍ حتَّى ألقتهُمْ موتَى على وجْهِ الأرضِ كأنَّهُمْ أَعجازُ نخلٍ خَاويةٍ، ودمَّرتْ ما مرَّتْ عليْهِ منْ ديارِهم وحُروثِهمْ وزروعِهم ودوابِّهم، حتَّى صارُوا عِبرةً للأممِ إلى يومِ القيامةِ؟

- ومَا الَّذي أرسلَ علَى قومِ ثمودَ الصَّيحةَ حتَّى قطَّعتْ قلوبَهم في أجوافِهم، وماتُوا عن آخرِهم؟

- وما الَّذي رفعَ قرى اللوطيَّة حتَّى سمعتِ الملائكةُ نبيحَ كلابِهم، ثمَّ قلبَها عليْهم، فجعلَ عاليَها سافلَها، فأهلكَهم جميعًا، ثُمَّ أتبعَهم حِجارةً مِنَ السَّماءِ أمْطرَها عليْهم، فجمعَ عليهم مِنَ العقوبَةِ مَا لَمْ يجمَعْه على أُمَّةٍ غيرِهم، ولإخوانِهم أمثالُها، وما هيَ منَ الظَّالمينَ ببعيدٍ؟

- ومَا الَّذِي أرسلَ على قومِ شُعيبٍ سَحابَ العذابِ كالظُّللِ، فلمَّا صارَ فوقَ رؤوسهمْ أمطرَ عليهمْ نارًا تلظَّى؟

- ومَا الَّذِي أغرَق فرعونَ وقومَه في البحرِ، ثُمَّ نُقِلَت أرواحُهم إلى جهنَّم؛ فالأجسادُ للغرقِ، والأرواحُ للحرقِ؟

- ومَا الَّذي خسفَ بقارُونَ ودارِه ومالِه وأهلِه؟

- ومَا الَّذي أهلَكَ القرونَ منْ بعدِ نوحٍ بأنواعِ العقوباتِ ودمَّرها تدْميرًا؟
- ومَا الَّذي أهلَكَ قومَ صاحبِ يس بالصيْحَةِ حتَّى خمدُوا عنْ آخرِهم؟
- ومَا الَّذِي بعثَ علَى بني إسْرائِيل قومًا أولِي بأسٍ شديدٍ، فجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ، وقتلُوا الرِّجالَ، وسبُوا الذريَّةَ والنِّساءَ، وأحرقُوا الدِّيارَ ونهبُوا الأمْوالَ، ثُمَّ بعثَهُمْ عليهِمْ مرةً ثانيةً فأهلكُوا ما قدرُوا عَليه وتبَّروا ما عَلَوْا تتبيرًا؟
- وَمَا الَّذِي سلَّطَ عليْهم أنواعَ العُقُوباتِ، مرةً بالقتْلِ والسَّبْيِ وخرابِ البلادِ، ومرَّةً بجوْرِ الملوكِ، ومرَّةً بمسْخِهِمْ قردةً وخنازيرَ، وآخرَ ذلكَ أقْسمَ الربُّ تباركَ وتَعالَى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

* عَنْ عَمْرو بْن مُرَّةَ قال: سمعتُ أبَا البختريِّ يقولُ: أخبرنِي مَنْ سمِعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: "لَنْ يهلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذَروا مِنْ أنفُسِهِمْ"(١).

* وفي المسندِ(٢) منْ حديثِ ثوبانَ قَالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: "إنَّ الرَّجلَ ليُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذنْبِ يصيبُه".

* وفيه(٣) أيضًا عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: "يُوشِكُ أنْ تتداعَى عليكُمُ الأممُ من كلِّ أُفُقٍ، كما تداعى الأكلةُ على قصْعتِهَا، قُلنَا: يا رسولَ الله، أمِنْ قلَّةٍ يومئذٍ؟ قال: "أنتمْ يومئذٍ كثيرٍ، ولكنَّكُم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيْلِ، تُنْزَعُ المهابةُ

---

(١) أبو داود (٤٣٤٧).

(٢) ابن ماجه (٩٠، ٤٠٢٢)، المسند (٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢).

(٣) المسند (٥/ ٢٧٨)، وأبوداود (٤٢٩٧).

مِنْ قُلوبِ عدوِّكُمْ، ويُجْعَلُ فِي قُلوبِكُمْ الوَهنُ"، قالوا: وما الوهنُ؟ قال: حُبُّ الحياةِ وكراهةُ الموتِ".

* وفِيهِ والسُّنَنِ[1] عَنْ أَبِي عبيدةَ بْنِ عبدِالله بن مسعودٍ، عنْ أبيهِ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: "إنَّ مَن كانَ قبلكُمْ كانَ إذَا عملَ العاملُ فيهِم بالخطيئَةِ جاءَهُ النَّاهِي تَعْذِيرًا، فَإِذَا كَانَ الغدُ جَالسَهُ وَواكلهُ وَشاربه، كأنَّه لمْ يرهُ على خطِيئةٍ بالأمْسِ، فلمَّا رأى اللهُ عزَّ وجلَّ ذَلكَ منهمْ ضَرَبَ بقلوبِ بعضهم علَى بعْضٍ، ثُمَّ لعنَهم على لسانِ نبيِّهم داودَ وعيسَى ابْنِ مريم؛ ذلكَ بمَا عصَوْا وكانوا يعتَدون، والَّذِي نفْسُ محمدٍ بيدِه، لتأمرُنَّ بالمعْروف ولتنهونَّ عنِ المنْكرِ، ولتأخُذُنَّ علَى يدِ السَّفِيه، ولتأطُرُنَّهُ علَى الحقِّ أطرًا، أو ليضرِبنَّ اللهُ بقُلوبِ بعضكِمُ على بعْضٍ، ثم ليَلْعَنَكُمْ كَما لعنَهمْ".

* وذكرَ الإمامُ أحمدُ[2] منْ حديثِ جرير أنَّ النبيَّ ﷺ قال: "مَا مِنْ قومٍ يُعملُ فِيهم بالمعَاصِي، هُم أعزُّ وأكْثرُ ممن يَعْمَلُهُ لَمْ يُغيِّروهُ؛ إلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ".

* وَفِي صَحيحِ البخارِي[3] عَن أنسِ بْنِ مالكٍ: "إنَّكُمْ لتعمَلُونَ أعمالًا هيَ أدقُّ في أعيُنِكُمْ منَ الشَّعْرِ، وإنْ كُنَّا لنعُدُّها علَى عهْدِ رسولِ الله ﷺ مِن الموبِقَاتِ".

* وفِي الصحيحَيْن[4] منْ حديثِ عبدِالله بنِ عمرَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ:

---

(١) المسند (١/ ٣٩١)، وأبوداود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٨).
(٢) المسند (٤/ ٣٦٤، ٣٦٦)، وأبوداود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٤٠٠٩).
(٣) البخاري (٦٤٩٢).
(٤) البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

"عُذِّبتِ امْرأةٌ في هرَّةٍ، سَجَنَتْهَا حتَّى ماتَتْ، فَدَخلَتِ النَّارَ، لَا هِيَ أطْعَمَتْهَا وَلَا سقتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تأْكُلُ منْ خشاشِ الأرْضِ".

وهاهُنا نكتةٌ دقيقَةٌ يغلطُ فيها النَّاسُ فِي أمرِ الذنبِ، وهِيَ أنَّهمْ لَا يروْنَ تأْثيرَهُ في الحالِ، وقدْ يتأخَّرُ تأثيرُه فيُنْسَى، وَيظنُّ العبدُ أنه لا يُغبّر بعد ذلكَ، وأنَّ الأمرَ كما قال القائلُ:

إذَا لمْ يُغبِّرْ حائِطٌ في وُقوعِهِ ... فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الوُقوعِ غُبَارُ

وسبحانَ اللهِ! كمْ أهلكتْ هذهِ النكتةُ من الخلقِ، وكمْ أزالتْ منْ نعمةٍ، وكمْ جلبتْ منْ نقمةٍ، وما أكثرَ المغترِّينَ بهَا ولم يعلمْ المغترُّ أنَّ الذنبَ ينقُضُ ولوْ بعدَ حينٍ، كَمَا ينقُضُ السُّمُّ وكما ينقُضُ الجرحُ المندَمِلُ على الغِشِّ والدَّغَل(١).

- وقالَ يحيَى بنُ معاذٍ الرَّازِي: "عجبْتُ مِن ذِي عقْلٍ يقولُ في دُعائِهِ: اللهمَّ لا تشمِّتْ بي الأعداءَ، ثُم هو يُشمِّتُ بنفْسِه كلَّ عدوٍّ له، قِيل: وكيفَ ذَلك؟! قالَ: يعْصِي اللهَ ويشمتُ به في القيامةِ كلَّ عدوٍّ".

* * *

فصل

[آثارُ الذُنُوبِ والمعاصِي علَى القَلْبِ والبَدنِ]

وَلِلمعَاصِي منَ الآثَارِ القبيحَةِ المذمومةِ، المضرَّةِ بالقلْبِ والبدنِ فِي الدُّنْيا والآخرةِ ما لا يعلمُه إلَّا اللهُ.

---

(١) الدَّغَل: أصل الدغل الشجر الملتف الذي مكمن أهل الفساد فيه، انظر النهاية (٢/ ١٣٢).

- فمنْها: حرمانُ العلْمِ، فإنَّ العلْمَ نُورٌ يقْذفُه اللهُ في القلْبِ، والمعصِيةُ تُطفِئ ذلك النُّورَ.

- ومنْها: حرمانُ الرِّزْقِ: وفِي المسند "إنَّ العبدَ ليحرمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصيبُه"[1]، وكما أنَّ تقْوى الله مجلبةٌ للرزْقِ، فتركُ التَّقْوى مجلبةٌ للفقْرِ، فما استُجْلِبَ رزقٌ بمثل ترْكِ المعاصِي.

- ومنْها: وحشةٌ يجدُها العاصِي في قلبِه وبينَه وبينَ الله لا تُوازنُها ولا تقارنُها لذَّةٌ أصلًا، ولو اجتمعتْ له لذَّاتُ الدُّنْيا بأسرِها لم تَفِ بتلك الوحشة.

وهذَا أمرٌ لا يُحسُّ بِه إلا منْ في قلبِه حياةٌ، وما لجرْحٍ بميِّتٍ إِيلامُ، فَلو لم تُتْرِكِ الذُّنوبُ إلَّا حذرًا مِنْ وُقوعِ تِلك الوحْشةِ، لَكانَ العاقلُ حرِيًّا بترْكِها.

- ومنْها: الوحْشةُ الَّتِي تحصُلُ بينَه وبينَ النَّاسِ، وَلَا سيَّما أهْلُ الخيرِ مِنهم؛ فإنَّه يجد وحشةً بينَه وبينَهم، وكلَّما قويتْ تِلك الوحشةُ بَعُدَ منْهم ومِنْ مُجالستِهم، وحُرِمَ بركةَ الانتفاعِ بهِمْ، وقَرُبَ منْ حزبِ الشيطانِ بقدرِ مَا بَعُدَ مِن حزبِ الرَّحمنِ، وتقوَى هذهِ الوحشةُ حتَّى تستحْكِمَ، فتقعَ بينه وبينَ امرأتِه وولدِه وأقاربِه، وبينَه وبينَ نفسِه، فتراهُ مستوْحِشًا مِن نفْسِه.

وقالَ بعضُ السَّلفِ: إنِّي لأعصِي اللهَ، فأرَى ذلك فِي خُلُقِ دابَّتِي وامْرأتِي.

- ومنْها: تعسِير أمورِه عليْه؛ فَلا يتوجَّهُ لأمْرٍ إلا يَجِدُه مُغلقًا دونه أوْ مُتعسِّرًا عليْه، وَهَذَا كَما أنَّ منِ اتَّقى اللهَ جعلَ لهُ منْ أمرِه يُسرًا، فمنْ عطَّل التَّقْوى جعلَ لهُ مِنْ أمْرِه عُسرًا، ويا لله العجبُ! كيف يَجِدُ العبْدُ أبوابَ الخيْرِ

---

(١) تقديم تخريجه.

والمصالِح مسدودَةً عنه وطُرقَها مُعْسرةً عليْهِ، وَهُوَ لا يعلَم مِنْ أَيْنَ أُتِيَ؟!

- **ومنها: ظُلمَةٌ يجدُها في قلبِه حقيقةً**، يحسُّ بِها كما يحس بظلْمةِ الليْلِ البهيم إذا ادلَهَمَّ[1]، فتصيرُ ظلمةُ المعصيةِ لقلبه كالظلمَةِ الحسيَّةِ لبصرِه؛ فإنَّ الطَّاعة نورٌ، والمعصيةَ ظلمةٌ، وكلَّما قويتِ الظُّلمةُ ازدادتْ حيرتُه، حتَّى يقعَ في البدَع والضَّلالاتِ والأمورِ المهلكةِ وهوَ لا يشعُر.

قالَ عبدُالله بنُ عبَّاسٍ: "إِنَّ للحسَنةِ ضياءً في الوجهِ ونورًا في القلبِ وسعةً في الرزقِ وقوةً في البدنِ ومحبَّةً في قلوبِ الخلْقِ، وإنَّ للسيئةِ سوادًا في الوجْهِ، وظلمةً في القلْبِ، ووَهنًا في البدنِ، ونقصًا في الرِّزْقِ، وبغضةً في قُلوبِ الخلْقِ".

- **ومنها: أَنَّ المعاصِي تُوهِنُ القلْبَ والبدَنَ**، أَمَّا وَهَنُها للقلْبِ فأمرٌ ظَاهِرٌ؛ بل لا تزالُ تُوهِنُه حَتَّى تُزيلَ حياتَهُ بالكليَّةِ.

وأما وَهَنُها للبَدَنِ فإنَّ المؤمنَ قُوَّتهُ في قلبِه، وكلَّما قوِيَ قلبُه قوِي بَدنُه، وأمَّا الفاجِر فإنَّه - وإنْ كان قويَّ البدنِ - فهُو أضعفُ شيءٍ عنْد الحاجةِ، فتخونُه قُوَّتُه أحوجَ ما يكونُ إلى نفسِه.

وتأمَّلْ قُوَّةَ أبدَانِ فارِس والرُّومِ كيفَ خانتْهم، أحْوجَ ما كانُوا إليْهَا، وقهرَهُمْ أهلُ الإيمانِ بقوَّةِ أبدانِهِمْ وقلوبِهِم.

- **ومنْها: حرمانُ الطَّاعَةِ**، فلوْ لم يكُنْ للذنْبِ عقوبةٌ إِلَّا أن يُصدَّ عنْ طَاعةٍ تكونُ بدلَهُ، وتقطعُ طريقَ طاعةٍ أُخْرَى، فينْقطعُ عليْه بالذنْبِ طريقٌ ثَالِثَةٌ،

---

(١) ادلهمَّ: كَثُفَ واسوَدَّ. انظر اللسان (١٢/ ٢٠٦).

ثُمَّ رابعَةٌ وهلمَّ جرًّا، فينقطعُ عنهُ بالذنبِ طاعَاتٌ كثيرَةٌ، كُلُّ واحدةٍ منْهَا خيرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيا وما عليْهَا، وَهَذَا كرجُلٍ أَكَلَ أَكْلَةً أوْجَبتْ له مرضَةً طويلةً، منعَتْه مِنْ عِدَّةِ أكلاتٍ أطيبَ منْهَا، واللهُ المستعانُ.

- **ومنْها: أَنَّ المعاصِي تقصِّرُ العمْرَ وتمحقُ بركتَه ولا بُدَّ؛** فإنَّ البرَّ كما يزيدُ فِي العمرِ، فالفجورُ يقصِّرُ العمرَ.

وسرُّ المسْألةِ أنَّ عمرَ الإنْسَانِ مُدَّةُ حياتِه، ولا حياةَ لهُ إلَّا بإقبالِه على ربه، والتنعُّم بحبِّه وذكرِه، وإيثارِ مرْضاتِه.

- **ومنها: أنَّ المعاصِي تزرعُ أمثالها ويولِّد بعضُها بعضًا،** حَتَّى يعزَّ عَلَى العبْدِ مفارقتُها والخروجُ منْهَا، كما قالَ بعضُ السَّلفِ: إنَّ منْ عقوبَةِ السيِّئَةِ السيِّئَةَ بعدَهَا، وإنَّ مِنْ ثَوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها.

ولا يزالُ العبْدُ يُعانِي الطَّاعةَ ويألَفُها ويحبُّها ويؤثرُها حتَّى يُرسلَ اللهُ سبحانَه وتعالَى برحمَتِه عليهِ الملائكة تؤزُّه إليْها أزًّا، وتُحرِّضُه عليْهَا، وتُزْعِجُه عَنْ فِرَاشِهِ ومجْلِسه إليْهَا.

وَلا يزالُ يألَفُ المعاصِي ويحبُّها ويؤثرُها حَتَّى يرسلَ اللهُ عليْهِ الشَّياطِينَ، فتؤزُّه إليْها أزًّا.

فالأوَّلُ قوَّى جُنْدَ الطَّاعةِ بالمدَدِ، فصارُوا منْ أكبرِ أعْوانِه، وهَذا قوَّى جُنْدَ المعصيَةِ بالمدَدِ فكَانُوا أعْوَانًا عَلَيْهِ.

- **ومنْها- وَهُوَ منْ أخوفِها علَى العبدِ -: أنَّها تضعفُ القلبَ عنْ إرادتِه،** فتقْوَى إرادةُ المعصيةِ وتضعفُ إرادةُ التوبةِ شيئًا فشيئًا، إلَى أنْ تنسلِخ مِن قلبِه إرادةُ

التوبةِ بالكلِّيَّة، فَلو مَاتَ نِصْفُه لما تابَ إلى الله، فَيأتِي مِنَ الاستغفارِ وتوبةِ الكذَّابينَ باللِّسانِ بشيءٍ كثيرٍ، وقلبُه معقودٌ بالمَعصيةِ مصرٌّ عليْها عازمٌ علَى مواقعتِها متَى أمكنَه، وهَذا مِنْ أعظمِ الأمْراضِ وأقْربِها إلى الهلاك.

- ومنْها: أنَّه ينسلخُ منَ القلبِ استقباحُها فتصيرُ لهُ عادةً، فلا يستقبحُ منْ نفسِه رؤيةَ النَّاسِ لهُ، ولا كلامَهُمْ فِيه.

وهذَا عندَ أربابِ الفسوقِ هوَ غايةُ التهتُّكِ وتمامُ اللَّذَّةِ، حتَّى يفتخرَ أحدُهم بالمعصيَةِ، ويحدِّثُ بِهَا مَنْ لم يعلمْ أنَّه عملَها فيقولُ: يا فلانُ، عمِلتُ كذَا وكذَا.

كَما قالَ النبيُّ ﷺ: **"كلُّ أمَّتِي مُعافًى إلَّا المجَاهرينَ، وإنَّ من الإجهارِ أن يسترَ اللهُ العبدَ ثُمَّ يصبحُ يَفْضَحُ نفسَه ويقولُ: يا فلانُ، عملتُ يوم كذَا وكذَا كذا وكذَا، فيهتكُ نفسَه، وقدْ باتَ يسترهُ ربُّهُ"**[1].

- **ومنْها: أنَّ كلَّ معصيةٍ منَ المعاصِي هِي ميراثٌ عَنْ أمَّةٍ منَ الأُمَمِ الَّتِي أهلكها اللهُ -عزَّ وجلَّ-.**

○ فاللوطيةُ ميراثٌ عن قومِ لوطٍ.

○ وأخذُ الحقِّ بالزَّائدِ ودفعُه بالنَّاقص ميراثٌ عنْ قومِ شُعيبٍ.

○ والعلوُّ فِي الأرْضِ بالفسادِ ميراثٌ عنْ قومِ فِرْعَوْنَ.

○ والتكبُّرُ والتجبُّرُ ميراثٌ عنْ قومِ هودٍ.

○ فالْعاصِي لابسٌ ثيابَ بعضِ هذهِ الأممِ، وهمْ أعداءُ اللهِ.

---

(١) البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

- **ومنْها: أنَّ المعصيةَ سببُ لهوانِ العبدِ على ربِّه وسقوطِهِ مِن عينِه.**

قالَ الحسنُ البصريُّ: هانُوا عليْهِ فعصوْه، ولو عزُّوا عليْهِ لعصمَهم.

وإِذَا هانَ العبدُ علَى الله لمْ يكرمْه أحدٌ، كمَا قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] وإنْ عظَّمهُم النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ لحاجتِهم إليهِمْ أَوْ خوفًا منْ شرِّهمْ، فهُمْ فِي قلوبِهمْ أحقرُ شيءٍ وأهونُه.

- **ومنْها: أنَّ العبْدَ لا يزالُ يرتكبُ الذنبَ حتَّى يهونَ عليهِ ويصغرَ فِي قلبِه؛** وذلكَ علامةُ الهلاكِ، فإنَّ الذنبَ كلَّمَا صَغُرَ فِي عينِ العبدِ عَظُمَ عندَ الله.

وَقدْ ذكرَ البُخاريُّ في صحيحِه عنِ ابْنِ مسعودٍ قَال: **"إنَّ المؤمنَ يرَى ذُنوبَه كأنَّها في أصلِ جبلٍ، يخافُ أن يقعَ عليهِ، وإنَّ الفاجرَ يرَى ذنوبَه كذُبابٍ وقعَ علَى أنفِهِ فقالَ بهِ هكذَا فطارَ"**(١).

- **ومنْها: أنَّ غيرَهُ منَ النَّاسِ والدوابِّ يعودُ عليهِ شؤمُ ذنوبِه، فيحترقُ هو** وغيرُه بشؤْمِ الذنوبِ والظلمِ.

وقالَ مجاهدٌ: إنَّ البهائمَ تلعنُ عُصاةَ بنِي آدمَ إذَا اشتدَّتْ السَّنَةُ، وأمسكَ المطرُ، وتقولُ: هذَا بشؤمِ معصيةِ ابنِ آدمَ.

- **ومنْها: أنَّ المعصيةَ تُورِثُ الذُّلَّ ولا بُدَّ؛** فإنَّ العزَّ كلَّ العزِّ فِي طاعةِ الله؛ قالَ تعالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] أي: **فليطلبْها بطاعةِ الله؛ فإنَّهُ لا يجدُها إلَّا في طاعتِه.**

وَكَانَ منْ دعاءِ بعضِ السلفِ: اللهمَّ أعزَّنِي بطاعتِك، ولا تُذلَّني بمعصيتِك.

---

(١) البخاري (٦٣٠٨).

وَقالَ الحسنُ البصرِيُّ: إنَّهم وإنْ طقْطقتْ[1] بهمُ البغالُ وهمْلجت[2] بهمُ البراذِين[3]، إِنَّ ذُلَّ المعصيةِ لا يفارقُ قلوبَهُمْ، أبى اللهُ إِلَّا أن يُذِلَّ مَنْ عصاهُ.

وقالَ عبدُالله بن المباركِ:

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوبَ ... وقد يورثُ الذُّلَّ إدمانُها
وتركُ الذُّنوبِ حياةُ القلوبِ ... وخيرٌ لنفسِكَ عِصْيانُها
وهَلْ أفسَدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ ورُهْبَانُهَا

- ومنْهَا: أنَّ المعاصِي تُفْسِدُ العقلَ؛ فإنَّ للعقْلِ نُورًا والمعصيةُ تُطْفِئ نُورَ العقْلِ ولا بُدَّ، وإِذَا طُفِئَ نورُه ضَعُفَ ونَقُصَ.

وقالَ بعضُ السَّلفِ: ما عصَى اللهَ أحدٌ حتَّى يغيبَ عقلُه.

- ومنْها: أنَّ الذُّنوبَ إذا تكاثَرتْ طُبِعَ على قلْبِ صاحِبِهَا، فكَانَ مِنَ الغَافِلين، كَما قالَ بعضُ السَّلفِ فِي قولِه تعالَى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] قالَ: هُوَ الذَّنْبُ بعدَ الذَّنْبِ.

- ومنْها: أنَّ الذُّنوبَ تُدْخِلُ العبدَ تحتَ لعنةِ رسولِ الله ﷺ؛ فإنَّه لعنَ علَى معاصٍ وغيرُها أكبرَ منْها، فهيَ أَوْلَى بدخولِ فاعلِها تحتَ اللعْنةِ.

○ فَلَعَنَ الواشمةَ والمستوشِمة[4]، والواصلةَ المستوصلةَ[1]، والنَّامِصَةَ والمتنمِّصةَ[2]،

---

(١) الطقطقة: صوت قوائم الخيل على الأرض الصلبة. انظر اللسان (مادة: طقطق).

(٢) الهملجة: حسن سير الدابة في سرعة. انظر اللسان (مادة هملج).

(٣) البراذين: جمع برذون وهو غير العربي من الخيل والبغال. المعجم الوجيز (٤٤).

(٤) الوشم: أن يغرز الجلد بإبرة ثم يحشى بكحل أو نيل فيزرق أثره أو يخضر. والواشمة هي

والواشِرة[3] والمستوْشرة[4].

- ولعنَ آكلَ الرِّبا ومُوكلَه، وكاتبَه وشاهدَه[5].
- ولعنَ المحلِّل والمحُلَّل لَه[6].
- ولعنَ السَّارِق[7].

- ومنها: حرمانُ دعوةِ رسولِ الله ﷺ ودعوةِ الملائكةِ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَه أمر نبيَّه أن يستغفِر للمؤمنينَ والمؤمناتِ، قال تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ

الفاعلة والمستوشمة هي التي يفعل بها ذلك. انظر النهاية (٥/ ١٨٩).

(١) **الواصلة**: هي التي تصل شعرها بشعر آخر زور، والمستوصلة التي يفعل بها. انظر النهاية (٥/ ١٩٢).

(٢) **النامصة**: هي التي تنتف الشعر من وجهها، والمتنمصة التي يُفعل بها. انظر النهاية (٥/ ١١٩).

(٣) **الواشرة**: هي التي تحدد أسنانها وترقق أطرافها، والمستوشرة التي يُفعل بها. انظر النهاية.

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥) من حديث ابن مسعود، ولم يذكر **" الواصلة والمستوصلة"** في هذا الحديث، ولكن ذكراها في حديث ابن عمر عند البخاري (٥٩٤٧)، ومسلم (٢١٢٤)، وذكرها مسلم (٢١٢٢) من حديث أسماء بنت أبي بكر، و(٢١٢٣) من حديث عائشة.

(٥) مسلم (١٥٩٧).

(٦) أبوداود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٥).

(٧) البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧).

﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

فَهذَا دعاءُ الملائكةِ للمؤمنينَ التَّائبينَ المتَّبعينَ لكتابِه وسنَّة رسولِه ﷺ الَّذينَ لَا سبيلَ لهمْ غيرُهما، فلا يطمعُ غيرُ هؤلاءِ بإجابةِ هذهِ الدعوةِ إذْ لَا يتَّصفُ بصفاتِ المدعوِّ لهُ بِها. واللهُ المستعانُ.

* * *

فصل

[حديثٌ عظيمٌ في عقوباتِ المعاصِي]

ومنْ عقوباتِ المعاصِي: مَا رواهُ البخارِيُّ في صحيحِه[1] منْ حديثِ سَمُرَةَ بْن جُنْدُبٍ قَالَ: "كانَ النبيُّ ﷺ ممَّا يُكثرُ أنْ يقولَ لأصحابِه: هلْ رأى أحدٌ منكُم مِنْ رؤيَا؟" قالَ: فيَقُصُّ عليْه منْ شاءَ الله أنْ يَقُصَّ، وأَنَّهُ قالَ ذات غداةٍ: "إنَّه أتانِي الليلةَ آتيانِ، وإنَّهما ابتعثَانِي، وإنَّهما قالا لِي: انطلقْ، وإنِّي انطلقتُ معهُما، وإنَّا أتيْنَا علَى رجُلٍ مُضْطجِعٍ، وإذا آخرُ قائمٌ عليْه بصخْرةٍ، وإذَا هو يهوِي بالصخرةِ لرأسِهِ، فيثلغُ[2] رأسهُ فيتهدهد[3] الحجرُ هاهنا فيتبعُ الحجرَ فيأخذَه فلا يرجعُ إليْهِ حتَّى يصحَّ رأسُه كَما كانَ ثُمَّ يعودُ عليْه، فيفْعلُ به مثْلَ ما فعلَ المرَّة الأُولى. قال: قلتُ لهما: سُبحانَ اللهِ! مَا هذانِ؟ قَالَ قَالَا لِي:

---

(١) البخاري (٧٠٤٧)، وأخرجه مسلم أيضًا (٢٢٧٥).

(٢) يثلغ: يشدخ، والشدخ: هو كسر الشيء الأجوف. انظر اللسان (١/ ٢٢٠، ٢/ ٤٥١).

(٣) يتهدهد: يتدحرج. انظر النهاية (٢/ ١٤٣).

انطلق .

قال : فانطلقْنا، فأتينَا على رجلٍ مستلقٍ لقفاهُ، وإذا آخرُ قائمٌ عليْه بكلوبٍ[1] منْ حديدٍ، وإذَا هُو يأتي أحدَ شقَّيْ وجْهه فيُشَرْشِرُ[2] شِدْقَهُ[3] إلى قفاهُ ومنخرَهُ إلَى قفاه وعينَه إلى قفاهُ، قال وربما قال أبو رجاء فيشق قَالَ: ثمَّ يتحوَّلُ إلَى الجانبِ الآخرِ، فيفعلُ به مثلَ مَا فعلَ بالجانبِ الأوَّلِ، فما يفرغُ من ذلك الجانِب حتَّى يصحَّ ذلكَ الجانِبُ كَما كانَ، ثُمَّ يعودُ عليْهِ فيفعل مثل مافعلَ المرَّةَ الأُولى. قَالَ: قلتُ: سُبحانَ الله! مَا هذانِ؟ قال : فقالَا لِي: انطلق .

فانطلقْنَا، فَأتيْنا على مثلِ التَّنُّورِ – قَالَ: فأحسبُ أنَّه كَانَ يقولُ-: فَإذَا فِيه لغطٌ وأصْواتٌ، قَالَ: فاطَّلعْنَا فِيه، فإذَا فِيه رجالٌ ونساءٌ عُراةٌ، وإذا هُمْ يأتيهم لهبٌ من أسفلَ منهُمْ، فإذا أتاهُمْ ذلك اللَّهبُ ضَوْضَوْا[4] قالَ: قلتُ:لهما مَا هؤلاءِ؟ قالَ: قالَا لِي: انطلق انطلقْ.

قال : فانطلقْنَا، فأتيْنا علَى نهرٍ – حسبْتُ أنَّه كان يقولُ: أحمرَ مثل الدَّم – وإذَا فِي النَّهرِ رجلٌ سابحٌ يسبحُ، وإذَا علَى شطِّ النهرِ رجلٌ قدْ جَمَعَ عندهُ حجارةً كثيرةً، وإذا ذلك السابحُ يسبحُ ما يسبحُ، ثمَّ يأتِي ذلكَ الَّذِي قدْ جَمَعَ عندهُ الحجارة فيفْغَرُ له فاهُ فيلقمِه حجرًا، فينطلقُ يسبحُ ، ثم يرجعُ إليه، كُلَّما رَجَعَ إليه فغرَ له فاهُ، فألقمهُ حجرًا، قالَ: قلتُ لهمَا: ما هذانِ؟ قالَ: قالا لِي: انطلق

(١) الكلوب: حديدة معوجة الرأس. انظر النهاية (٤/ ١٩٥).

(٢) يشرشره: يشقه ويقطعه. انظر النهاية (٢/ ٤٥٩).

(٣) الشدق: جانب الفم. انظر النهاية (٢/ ٤٥٣).

(٤) ضوضوا: ضجُّوا واستغاثوا. انظر النهاية (٣/ ١٠٥).

انطلقْ.

قال: فانطلقْنَا ، فأتيْنَا علَى رجُلٍ كَريهِ المرآةِ[1]، كأكْرهِ ما أنتَ راءٍ رجلًا مرآةً، وإذا عندهُ نارٌ يَحُشُّهَا[2] ويسْعَى حولَهَا، قال: قُلْتُ لَهُمَا: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق انطلقْ.

فانطلقْنَا فأتينا علَى روضةٍ معتمةٍ فيها مِنْ كلِّ نور الرَّبيعِ، وإذا بين ظهري الروضةِ رجلٌ طويلٌ، لا أكادُ أَرى رأسَهُ طُولًا في السَّماء، وَإِذَا حولَ الرَّجلِ من أكثر ولدانٍ رأيتهم قطُّ، قال: قُلْتُ لهما: ما هذا؟ مَا هؤُلَاء؟ قالَ: قَالَا لي: انطلق انطلقْ.

قال: فانطلقْنا ، فانتهيْنا إلى روضةٍ عظيمةٍ لم أرَ روضةً قطُّ أعظم منها ولا أحسنَ، قال: قالا لي: ارْقَ فيها، فارتقينَا فيْها فانتهينا إلى مدينةٍ مبنيةٍ بلبنِ ذهبٍ ولبن فضةٍ، فأتينَا بابَ المدينَةِ فاستفتحْنَا ففُتِحَ لنَا، فدخلنَاها فتلقانا فيها رجالٌ شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبح ما أنت راءٍ، قال: قالا لهم: اذْهبُوا فقعُوا في ذلكَ النهرِ، قالَ: وإذا نهرٌ معترضٌ يجري كأنَّ ماءهُ المحضُ[3] مِن البياضِ، فذهبُوا فوقعُوا فِيه، ثُمَّ رجعُوا إليْنَا، قد ذهبَ ذلك السوءُ عنهم، فصاروا في أحسن صورة قالَ: قالَا لي: هَذِه جنةُ عَدنٍ، وَهذاك منزلُكَ.

قَالَ: فسمَا بَصري صُعُدًا، فَإذا قصرٌ مثلُ الرَّبابةِ[4] البيضَاءِ، قَالَ: قَالَا لِي:

---

(١) أي سيء المنظر.

(٢) يحشها: يوقدها. انظر النهاية (١/ ٣٨٩).

(٣) المحض: الخالص من كل شيء . انظر النهاية (٤/ ٣٠٢).

(٤) الربابة: السحاب الذي ركب بعضه بعضًا. انظر النهاية (٢/ ٣٨١).

هَذَاك منزلُك، قَالَ قلتُ لهما: باركَ اللهُ فيكُما، ذرَاني فأدخُلَه. قَالَا: أَمَّا الآنَ فَلَا، وأنْتَ دَاخِلَهُ.

قَالَ: قلْتُ لهما: فإنِّي قد رأيتُ منذُ الليلةِ عَجبًا، فَما هَذَا الَّذِي رأيتُ؟!

قَالَ: قَالَا لِي: أَمَا إنَّا سنخبِرُك.

أَمَّا الرجلُ الأوَّلُ الذي أتيتَ عليه يُثْلَغُ رأسُهُ بالحجرِ؛ فإنه الرجلُ يأخذُ القرآن فيرفضُهُ وينامُ عنِ الصَّلاةِ المكتوبةِ.

وأمَّا الرجلُ الَّذي أتيْتَ عليه يُشرْشَرُ شِدقُه إلى قفاهُ ومنخرُه إلى قفاهُ، وعينُه إلى قفاهُ؛ فإنَّه الرَّجلُ يغدُو من بيتِه فيكذِبُ الكذبةَ تبلُغ الآفاقَ.

وأمَّا الرِّجالُ والنساءُ العُراةُ الَّذينَ في مثلِ بناءِ التنوُّرِ، فإنَّهم الزُّناةُ والزَّواني.

وأمَّا الرجلُ الَّذي أتيْتَ عليْهِ يسبحُ في النهْرِ ويلقمُ الحجر؛ فإنَّه آكلُ الرِّبا، وَأَمَّا الرَّجلُ الكريهُ المرآةِ الذي عِنْدَ النَّارِ يحشُّها ويسْعَى حولَها؛ فإنَّه مالكٌ خازنُ جهنَّمَ.

وأمَّا الرجلُ الطويلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ؛ فإنَّه إبراهيمُ ﷺ.

وأمَّا الولدانُ الَّذينَ حولَه، فكلُّ مولودٍ مَاتَ عَلَى الفِطْرةِ قالَ فقالَ بعضُ المسلمينَ: يا رسولَ اللهِ، وأوْلادُ المشْركينَ؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: وأولادُ المشرِكِينَ.

وأمَّا القومُ الذينَ كانُوا شطرٌ منهُم حَسنًا وشطرٌ قبيحًا؛ فإنَّهمْ قومٌ خلطُوا عملًا صالحًا وآخرَ سيِّئًا تجاوزَ اللهُ عنْهُمْ".

❊ ❊ ❊

فصل

[مِنْ آثارِ الذُّنوبِ والمعاصي في الأرضِ]

ومنْ آثارِ الذُّنوبِ والمعاصِي: أنَّها تحدِثُ في الأرْضِ أنْوَاعًا مِنَ الفسادِ في المياهِ والهوَاءِ والزُّروعِ والثِّمارِ والمسَاكنِ. قَال تعالَى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

ومنْ تأثيرِ المعاصِي فِي الأرْضِ: مَا يحلُّ بِهَا مِن الخسْفِ والزَّلازِلِ ويمْحقُ بركتَهَا، وقدْ مرَّ رَسولُ الله ﷺ علَى ديارِ ثمود[1]، فمنعَهُمْ منْ دخولِ ديارِهمْ إلَّا وهُمْ باكُونَ، ومِنْ شربِ مياهِهِمْ، ومنَ الاستسقاءِ من آبارِهم، حتَّى أَمَرَ أنْ يُعلفَ العجينُ الَّذي عُجنَ بمياهِهم للنَّواضحِ[2]؛ لتأثيرِ شؤمِ المعصيةِ فِي الماءِ، وكذلكَ شؤُم الذُّنوبِ فِي نقْصِ الثِّمارِ وَمَا تَرى بهِ مِنَ الآفَاتِ.

* * *

فصل

[من عُقوبَاتِ الذُّنوبِ والمعَاصِي]

ومنْ عقوباتِ الذُّنوبِ: أنَّها تطفئُ من القلْبِ نَار الغيْرةِ الَّتي هِيَ لحياتِه وصلاحِه كالحرارَةِ الغريزيَّةِ لحياةِ جميعِ البدَنِ؛ فالغيْرَةُ حرارتُه ونارُه الَّتي تُخرِجُ

---

(١) البخاري (٣٣٧٨)، ومسلم (٢٩٨١).

(٢) **النواضح:** الإبل التي يستقى عليها. انظر النهاية (٥/ ٩٦).

مَا فِيه من الخبثِ والصِّفاتِ المذمُومَةِ، كَمَا يُخرجُ الكيرُ[1] خبثَ الذهبِ والفضَّةِ والحديدِ، وأشْرفُ النَّاسِ وأعلاهُمْ همَّةً أشدُّهم غيرةً عَلَى نفسِه وخاصَّتِه وعُموم النَّاسِ.

* **وَفِي الصَّحيح[2] أَنَّهُ قالَ: "لَا أحدٌ أغيرُ منَ الله، مِنْ أجْلِ ذلكَ حرَّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منْها ومَا بطنَ، ولا أحدٌ أحبُّ إليْه العذْرُ منَ الله، مِن أجلِ ذلكَ أرسلَ الرُّسلَ مبشِّرينَ ومنذرينَ، ولا أحدٌ أحبُّ إليه المدحُ من الله، مِن أجلِ ذلك أثنى عَلى نفسِهِ".**

ومِنْ عقوباتَها: ذهابُ الحياءِ الذِي هو مادَّةُ حياةِ القلبِ، وهو أصلُ كلِّ خيرٍ، وذهابُه ذهابُ الخيرِ أجمعِه.

* وفي "الصحيح[3]" عنه ﷺ أنه قال: "**الحياءُ خيرٌ كُلُّه**".

* وقال: "**إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ الناسُ مِن كلامِ النُّبُوَّةِ الأُولى: إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شِئْتَ[4]**".

والمقصودُ: أنَّ الذنوبَ تُضعِفُ الحياءَ منَ العبدِ، حتَّى ربَّما انسلخَ منْه بالكليَّة، حَتَّى إنه ربَّما لا يتأثَّرُ بعلْمِ النَّاسِ بسُوءِ حالِه ولا باطِّلاعِهم عليه؛ بلْ كثيرٌ منهُم يُخبِرُ عَنْ حالِه وقبْحِ ما يفعلُ، والحامِلُ لَه علَى ذلكَ انسِلاخُه منَ الحياءِ، وإذَا وصَلَ العبْدُ إلى هذهِ الحالِ لم يبْقَ في صَلَاحِه مطْمعٌ.

---

(١) **الكير**: الزِّق الذي ينفخ به النار. انظر النهاية (٤/ ٢١٧).

(٢) البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم(٢٧٦٠).

(٣) مسلم (٣٧)، من حديث عمران بن حصين.

(٤) البخاري (٣٤٨٣).

ومنْ عقوباتِ الذُّنوبِ: أنَّها تُضعفُ في القلْبِ تعظِيم الربِّ جَلَّ جلالُه وتُضعِفُ وَقَارَهُ فِي قلبِ العبْدِ ولا بُدَّ، شَاء أَمْ أَبى، وَلوْ تمكَّنَ وقارُ اللهِ وعظمتُه فِي قلبِ العبْدِ لما تجرَّأ عَلى معاصِيهِ.

ومنْ بعضِ عقوبةِ هَذا: أنْ يَرفع اللهُ عزَّ وجلَّ مَهابتَه[1] مِن قُلوبِ الخلْقِ، ويهونُ عليهِمْ، ويستخِفُّونَ بِهِ، كَما هانَ عليْه أمرُه واستخفَّ بِهِ، فعلَى قدْرِ محبَّةِ العبْدِ لله يُحبُّه النَّاسُ، وعلى قدْرِ خَوْفِه مِن الله يخافُه الخلْقُ، وعلَى قدْرِ تَعظِيمِه لله وحُرُمَاتِه يُعظِّم النَّاسُ حُرمَاتِه ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

وَمِنْ عُقُوباتِها: أنَّها تستدعِي نسيانَ الله لعبدِه وتَرْكَه، وتخليتَه بينَه وبينَ نفسِه وشيطانِه، وهناكَ الهلاكُ الَّذي لا يُرجَى مَعه نجاةٌ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨ – ١٩].

وَمِنْ عُقوبَاتِها: أَنَّها تُخرِجُ العبْدَ منْ دائرةِ الإحسانِ، وتمنعُه ثوابَ المحسنينَ.

فإنْ أرادَ اللهُ بِه خيرًا أقرّه فِي دائرَةِ عُموم المؤمِنِينَ، فإنْ عَصاهُ بالمعاصِي الَّتي تُخرجُه مِن دائرةِ الإيمانِ كَما قالَ النبيُّ ﷺ: **"لَا يزْنِي الزَّاني حِينَ يزْنِي وهوَ مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين**

---

(١) أي مهابة صاحب المعصية.

يسرِقُ وهو مؤمنٌ، ولا ينْتَهبُ نُهبةً ذاتَ شرفٍ يرفعُ إليهِ فِيها الناسُ أبصارَهُمْ حِينَ ينتهبُها وهُو مُؤمِنٌ"[1] فإيَّاكمْ إياكمْ، والتوبةُ معروضةٌ بعدُ.

ومنْ عقوباتِها: أنَّها تضعفُ سيْرَ القلبِ إلى اللهِ والدَّارِ الآخرةِ.

فالذَّنبُ إمَّا أن يميتَ القلبَ، أو يمرضَه مرضًا مخوفًا، أو يضعفَ قوَّتَه ولا بد، حتَّى ينتهِي ضعفُه إلى الأشْياءِ الثَّمانيةِ الَّتي استعاذَ مِنها النبيُّ ﷺ وهِي: **الهَمُّ والحزنُ، والعَجْزُ والكسلُ، والجبْنُ والبُخْلُ، وضلعُ الدَّين، وغلبةُ الرِّجَال"**، وكلُّ اثنيْن منْها قَرينَانِ.

والمقصُودُ: أنَّ الذنُوبَ منْ أقْوى الأسْبابِ الجالبةِ لهذِه الثمانيةِ، كما أنَّها منْ أَقْوى الأسبابِ الجالبةِ لجهدِ البلاءِ، ودَرْكِ الشَّقاءِ، وسُوءِ القضاءِ، وشَماتةِ الأعْداءِ، ومَنْ أَقوى الأسْبابِ الجالبةِ لِزَوالِ نِعَمِ اللهِ، وتحوُّلِ عافِيتِه، وفجاةِ نقْمتِه، وجَميعِ سخطِه.

وَمِنْ عُقوبَاتِ الذُّنوبِ: أنَّها تزيلُ النِّعمَ وتحلُّ النِّقَمَ.

* وقدْ قالَ تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

* وقالَ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣].

* وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

---

(١) البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم(٥٧).

ولقدْ أحسنَ القائل.

إذا كنتَ في نِعْمَةٍ فارْعَهَا فإنَّ المعَاصِي تُزيلُ النِّعَمْ
وحُطْها بِطَاعَةِ رَبِّ العِبَادِ فَرَبُّ العِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمْ
وإيَّاك والظُّلْمَ مَهْمَا استطعْتَ فَظُلْمُ العبادِ شديدُ الوَخَمْ[1]
وسافِرْ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الورَى لِتُبصِرَ آثارَ مَنْ قدْ ظَلَمْ
فتلكَ مَسَاكنُهُمْ بَعْدَهُمْ شُهودٌ عَليهِم وَلَا تَتَّهِمْ
وَمَا كَانَ شَيءٌ عَلَيهِمْ أَضرَّ مِنَ الظُّلْمِ، وهوَ الذي قَدْ قَصَمْ
فَكَمْ تَركُوا مِنْ جِنَانٍ ومن قُصُورٍ وأخرَى عليْهم أُطُمْ[2]
صُلوا بالجحيمِ وفاتَ النَّعيمُ وكانَ الذي نَالَهُمْ كالحُلُمْ

ومنْ عقُوباتِها: مَا يُلْقِيهِ اللهُ سبحانَه مِنَ الرُّعْبِ والخوفِ في قلبِ العاصِي؛ فلَا تراهُ إلَّا خَائِفًا مرعوبًا، فإنَّ الطَّاعةَ حصنُ اللهِ الأعظمُ الَّذِي مَنْ دخلَه كانَ منَ الآمِنِينَ منْ عقوبَةِ الدنْيا والآخرةِ.

ومنْ عقوباتِها: أَنَّها تُوقِعُ الوحْشةَ العظيمةَ في القلْبِ.

كَمَا قيلَ:

فإنْ كنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذنوبُ فَدَعْهَا إذا شِئْتَ واستأنسِ

وسرُّ المسألةِ: أنَّ الطاعةَ توجبُ القربَ مِن الربِّ سُبحانه - فكلَّما اشتدَّ القربُ قوِي الأنسُ، والمعصيةُ تُوجبُ البعدَ منَ الربِّ، وكلَّما ازدَاد

---

(١) **الوخم**: الثقل. انظر النهاية (٥/ ١٦٤).

(٢) **أُطُم**: الأُطُم: بناء مرتفع، وجمعه آطام. انظر النهاية (١/ ٥٤).

البعْدُ قويتِ الوحشةُ.

والوَحْشَةُ سببُها الحجابُ، وكلَّما غلُظَ الحجابُ زادتِ الوحشةُ، فالغفلةُ توجبُ الوحشةَ، وأشدُّ منهَا وحشةُ المعصيةِ، وأشدُّ منها وحشةُ الشِّركِ والكفرِ، ولا تجدُ أحدًا مُلابسًا شيئًا مِن ذلكَ إلَّا ويعلُوه مِن الوحشةِ بحسْبِ ما لابسهُ مِنه؛ فتعلُو الوحشةُ وجهَهُ وقلبَه، فَيَسْتَوحِشُ ويُسْتَوحَشُ مِنْهُ.

ومنْ عقوبَاتِها: أنَّها تصرفُ القلبَ عنْ صحَّتِه واستقامتِه إلى مرضِه وانحرافِه؛ وقدْ أجمعَ السَّائرونَ إلى الله أنَّ القلوبَ لا تُعْطَى مُنَاهَا حتَّى تصلَ إلى مولَاها، ولا تصلُ إلى مولاهَا حتَّى تكونَ صحيحةً سليمةً، ولَا تكونَ صحيحةً سليمةً حتَّى ينقلبُ داؤُها فيصيرُ نفسَ دوائِها، ولا يصحُّ لهَا ذلك إلَّا بمخالفةِ هَواهَا، فهَوَاهَا مَرضُها، وشِفَاؤُها مُخالفتُه، فإنِ استحكَم المرضُ قتلَ أو كَادَ.

إذا كان هـذا فِعْلَ عَبْدٍ بنفسهِ فَمَـنْ ذا له مِنْ بعد ذلك يُكْرِمُ؟

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨].

ومِنْ عقوباتِها: أنَّها تعمِي بصيرة القلبِ، وتطمسُ نورَه، وتسدُّ طُرقَ العلمِ، وتحجبُ مواردَ الهدايةِ.

ولا يزالُ هذا النورُ يضعفُ ويضمحلُّ، وظلامُ المعصيةِ يَقْوى حَتَّى يصِير القلبُ في مثْلِ الليلِ البَهيمِ.

كَما قالَ النَّبيُّ ﷺ: "**إنَّ هَذِه القبورَ مُمْتَلِئَةٌ عَلَى أهلِهَا ظُلْمةً، وإنَّ اللهَ**

مُنَوِّرُهَا بصَلاتي عليْهِم"(١).

ومنْ عقوباتِها: أنَّها تصغِّر النفسَ وتقمعَها، وتدسِّيها وتحقِّرها، حتى تصيرَ أصغرَ شيءٍ وأحقرهُ، كَمَا أنَّ الطاعةَ تنمِّيها وتُزكِّيها وتُكبِّرُها، قال اللهُ تَعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

ومنْ عقوباتِها: أنَّ العاصِي دائمًا في أسْرِ شيْطانِه وسجْنِ شهواتِه، وإذا قُيِّد القلْبُ طرقتْه الآفاتُ مِن كلِّ جانبٍ بحسْبِ قيُودِهِ؛ ومَثَلُ القلْبِ مثلُ الطَّائِر، كُلَّما عَلا بَعُدَ عنِ الآفاتِ، وكلَّما نزلَ احتوشتْه الآفاتُ.

وأصلُ هذا كلِّه: أنَّ القلبَ كلَّما كانَ أبعدَ مِن الله كانتِ الآفاتُ إليهِ أسرعَ، وكلَّما قربَ من الله بعدتْ عنه الآفاتُ.

والبعدُ من الله مراتبُ، بعضُها أشدُّ من بعضٍ؛ فالغفلةُ تُبعدُ العبْدَ عنِ الله، وبُعْدُ المعصيةِ أعظمُ مِن بُعْدِ الغفْلَةِ، وبُعْدُ البِدعةِ أعظمُ من بُعْدِ المعصِية، وبُعْدُ النِّفاقِ والشِّرْكِ أعظمُ مِن ذلك كلِّه.

ومنْ عقوباتِها: سقوطُ الجاهِ والمنزلَةِ والكرامَةِ عندَ الله وعندَ خلقِه؛ فإنَّ أكرمَ الخلْقِ عِند الله أتقاهُمْ، وأقربَهم منهُ منزلةً أطوعهمْ له، وعلى قدْرِ طاعةِ العبدِ له تكُونُ منزلتُه عندهُ؛ فَإذَا عَصَاهُ وخَالَفَ أمرهُ سقطَ من عينِه؛ فأسقطَه من قلوبِ عبادِه.

ومنْ أعظمِ نعمِ اللهِ علَى العبدِ: أنْ يرفعَ لهُ بينَ العالمينَ ذكرَه، ويُعليَ قدْرَه، ولهذا خصَّ أنبياءَه ورسلَه منْ ذلكَ بِمَا ليسَ لغيرِهم، كَمَا قالَ تعالَى:

---

(١) مسلم (٩٥٦).

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص: ٤٥ - ٤٦] أي: خَصصْنَاهُمْ بخصيصَةٍ، وَهُو الذكرُ الجميلُ الَّذِي يُذكرُونَ بِهِ في هذه الدَّارِ، وهُو لِسانُ الصِّدْقِ الَّذِي سألَه إبراهيمُ الخليلُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حيثُ قالَ: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقالَ سبحانَه عنه وعنْ بَنِيه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤] فأتباعُ الرُّسُلِ لهمْ نصيبٌ من ذلكَ بحسْبِ ميراثِهم منْ طاعتِهم ومتابعتِهم، وكلُّ منْ خالفَهم فَاتَه مِن ذلكَ بحسْبِ مخالفتِهم ومعصيَتِهم.

ومَنْ عقوبَاتها: أَنَّها تسْلبُ صاحبَها أسماءَ المدحِ والشَّرفِ وتكسوهُ أسماءَ الذَّمِّ والصَّغارِ، فتسلبُه اسمَ المؤمنِ والبَرِّ والمحسنِ والمتَّقِي والمطِيعِ والمنيبِ والوليِّ والورعِ والصَّالحِ والعابِدِ والخائفِ والأوَّابِ والطيِّبِ والمرضيِّ ونحوِها.

وتكسوهُ اسمَ الفاجِرِ والعَاصِي والمخالِفِ والمسِيءِ والمفْسِدِ والخبيثِ والمسْخُوطِ والزَّانِي والسَّارِقِ والقاتِلِ والكَاذبِ والخائنِ واللُّوطِيِّ وقاطعِ الرِّحمِ والغادرِ وأمثالِها.

فهذه أسماءُ الفسوقِ و ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [الحجرات: ١١] الَّذِي يوجِبُ غضبَ الدَّيَّانِ ودخولَ النيرانِ وعيْشَ الخزْيِ والهوانِ.

ومن عقوباتِها: أنَّها تُؤثِّر بالخاصيَّةِ في نُقصانِ العقْلِ، فلا تجدُ عاقلَيْنِ

أحدُهما مطيعٌ لله والآخرُ عَاصٍ، إلَّا وعقْلُ المطيعِ منْهما أوْفرُ وأكملُ، وفكرُه أصحُّ، ورأيُه أسدُّ، والصَّوابُ قرِينُه.

ولهذا تجدُ خِطابَ القرْآنِ إنَّما هُو مَع أُولي العقولِ والألبابِ كقولِه: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ونظائرُ ذلكَ كثيرةٌ.

ومنْ أعظمِ عقوباتِها: أنَّها توجبُ القطيعةَ بين العبدِ وبين ربِّه تبارك وتعالَى، وإذَا وقعتِ القطيعةُ؛ انقطعتْ عنه أسبابُ الخيرِ، واتصلتْ بِه أسبابُ الشرِّ.

قال بعضُ السَّلفِ: رأيتُ العبدَ مُلقًى بينَ الله سبحانه وبينَ الشيطانِ؛ فإنْ أعرَضَ اللهُ عنه تولَّاه الشيطانُ، وإنْ تولَّاه اللهُ لم يقدرْ عليهِ الشيطانُ، وقدْ قالَ تعالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

ومنْ عقوباتِها: أنَّها تمحقُ بركةَ العُمْرِ، وبركةَ الرزْقِ، وبركةَ العلْمِ، وبركةَ العملِ، وبركةَ الطَّاعَةِ.

وبالجمْلةِ تمحقُ بركةَ الدِّينِ والدُّنيا، فَلا تجِدُ أقلَّ بركةٍ في عُمرِه ودينِه ودنياهُ ممنْ عصى اللهَ، وما مُحِقتِ البركةُ من الأرضِ إلَّا بمعاصِي الخلْقِ.

قَال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

* وفِي الحديثِ: "**إِنَّ رُوحَ القدُسِ نَفَثَ في روعي أَنَّه لنْ تموتَ نفسٌ حتَّى تستكمِلَ رزقَها، فاتَّقوا اللهَ وأجمِلوا في الطَّلَبِ، فإنَّه لا يُنالُ ما عِنْدَ اللهِ إلا بطاعتِهِ، وإنَّ اللهَ جعلَ الرَّوحَ والفَرحَ في الرِّضَى واليقينِ، وجَعَلَ الْهَمَّ والحُزْنَ في الشَّكِّ والسُّخْطِ**"(١).

وليستْ سعةُ الرزقِ والعملِ بكثرتِه، ولا طولُ العمْرِ بكثْرةِ الشُّهورِ والأعْوَامِ، ولكنْ سعةُ الرِّزْقِ والعُمْرِ بالبَركةِ فِيه.

ومنْ عقوباتِها: أَنَّها تجْعلُ صاحِبَها منَ السِّفلةِ بعدَ أنْ كانَ مُهيئًا لأنْ يكونَ من العِلْية، فإنَّ اللهَ خلقَ خلقَه قسميْنِ: عِلْيَةً وسِفْلَةً، وجعل عِلِّيينَ مستقرَّ العلْيَةَ، وأسفلَ سافلينَ مُستقرَّ السِّفْلَةِ.

فَكُلَّما عملَ العبدُ معصيةً نزلَ إلَى أسفلِ درجةٍ، ولا يزالُ في نزولٍ حتَّى يكونَ منَ الأسفلينَ، وكلَّما عملَ طاعةً ارتفعَ بها درجةً، ولا يزالُ فِي ارتفاعٍ حتَّى يكونَ من الأعْلَيْن.

ومنْ عقوباتِها: أَنَّها تجَرِّئُ على العبْدِ مَنْ لم يكُنْ يتجرَّأُ عليْه مِن أَصنافِ المخلُوقَاتِ.

قال بعضُ السَّلَف: إنِّي لأعصي اللهَ فأعرفُ ذلكَ في خُلُقِ امرأتي ودابَّتِي.

وَكذلكَ يجترئُ عليْهِ أولياءُ الأمْرِ بالعقوبةِ الَّتِي إنْ عَدلُوا فِيها أقامُوا عليْه حُدودَ اللهِ، وتجترئُ عليْهِ نفسُه فتتأسَّدُ عليْه وتستصْعِبُ عليْهِ، فلو

---

(١) ابن ماجه (٢١٤٤).

أرادَها لخيرٍ لم تطاوِعْهُ ولم تَنْقَدْ لَهُ، وتسُوقُهِ إلى ما فِيه هلاكُه، شَاءَ أمْ أَبى.

وذلكَ لأنَّ الطاعةَ حِصنُ الربِّ تبارك وتعالى الَّذِي مَنْ دخلَه كان منَ الآمنينَ.

ومِنْ عُقوباتِها: أَنَّها تخونُ العبْدَ أحوجَ ما يكونُ إلى نفْسِه، فَإِنَّ كلَّ أحدٍ يحتاجُ إلى معرفةِ مَا ينفعُه وما يضرُّه في معاشِه ومعادِه، وأعْلمُ النَّاسِ أعرفُهمْ بذلِكَ علَى التفْصِيلِ.

والمعاصِي تخونُ العبْدَ أحوجَ مَا كانَ إلى نفسِه في تحصيلِ هذا العلْمِ، وإيثارُ الحظِّ الأشْرفِ العَالي الدَّائمِ على الحظِّ الخسِيس الأدْنَى المنقطِعِ، فتحجُبُه الذُّنوبُ عَنْ كمالِ هذا العلْمِ، وعَنِ الاشْتِغالِ بِمَا هُو أوْلى بِه وأنفَعُ لهُ في الدَّاريْنِ.

ومنْ عُقوباتِها: أَنَّها تَعمِي القلْبَ، فَإِنْ لم تعمِه أضعفَتْ بصيرتَهُ وَلَا بدَّ، فإذَا عمِي القلْبُ وضعُفَ فاتَهُ منْ معرفَةِ الهدَى وقوَّته على تنفيذِه في نفسِه، وفي غيرِه بحسْبِ ضعفِ بصيرَتِه وقوَّتِه.

فَإِنَّ الكمالَ الإنسانِيَّ مَدارُه علَى أصْلَيْنِ: معرفةِ الحقِّ منَ الباطِلِ، وإيثارِه عليْهِ.

ومَا تفاوتَتْ منازِلُ الخلقِ عند الله تعالَى فِي الدُّنْيا والآخرةِ إلَّا بِقَدرِ تفاوتِ منازِلِهم في هذينِ الأمريْنِ، وهُمَا اللَّذانِ أثْنَى اللهُ سبحانَه علَى أنبيائِه بِهِما في قولِه تعالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

فـ ﴿ ٱلْأَيْدِى ﴾ القويُّ في تنفيذِ الحقِّ ﴿ وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾: البصائرُ في الدينِ، فوصفَهم بكمالِ إدراكِ الحقِّ وكمالِ تنفيذِه.

وانقسمَ النَّاس في هذَا المقامِ أربعةَ أقسامٍ؛ فهؤلاءِ أشرفُ الأقسامِ منَ الخلقِ وأكرمُهم عندَ الله.

- **القسمُ الثَّانِي:** عكس هؤلاءِ؛ منْ لا بصيرةَ لهُ فِي الدِّين، ولا قوَّةَ علَى تنفيذِ الحقِّ.

وهمْ أكثر هذا الخلقِ، الَّذينَ رُؤْيتُهمْ قذى العيونِ وحُمَّى الأرواحِ، وسقمِ القلوبِ، يضيقونَ الديارَ، ويغلون الأسعارَ، ولا يُستفادُ بصُحْبَتِهم إلَّا العَارُ والشنارُ.

- **القسمُ الثَّالثُ:** مَنْ لهُ بصيرةٌ بالحقِّ ومعرفةٌ بهِ، لكنَّه ضعيفٌ لَا قُوَّةَ لهُ علَى تنفيذِه ولا الدعوةِ إليهِ، وهذَا حالُ المؤمنِ الضعيفِ، والمؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلَى الله مِنْه.

- **القسْمُ الرَّابعُ:** منْ لهُ قوَّةٌ وهمَّةٌ وعزيمةٌ، لكنَّهُ ضعيفُ البصيرةِ فِي الدِّينِ، لا يكادُ يميِّزُ بينَ أولياءِ الرحمنِ وأولياءِ الشَّيْطانِ، بَلْ يحسبُ كُل سَوداءَ تمرةً، وكلَّ بيضاءَ شَحْمةً، يحسبُ الورَمَ شَحمًا، والدَّواءَ النافِع سُمًّا.

وَلَيسَ فِي هؤلاءِ مَنْ يصلُح للإمامةِ في الدِّينِ، ولا هُوَ موضِعٌ لَهَا سِوى القسمِ الأوَّلِ.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] فأخبرَ سبحانَه أنَّ بالصبرِ واليقينِ نالُوا الإمامةَ فِي الدِّينِ، وهؤلاءِ همُ الَّذينَ استثنَاهُمُ اللهُ سبحانَهُ من جملةِ الخاسرينَ،

وأقسمَ بالعصرِ – الذي هُو زمنُ سعْيِ الخاسرينَ والرَّابِحِينَ – على أنَّ مَنْ عدَاهم فهوَ منَ الخاسرينَ.

فقال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ – ٣] ولم يكتفِ منهمْ بمعرفةِ الحقِّ والصبْرِ عليهِ؛ حتَّى يُوصيَ بعضُهم بعضًا به، ويرشِدَه إليْهِ، ويحضَّه عليْهِ.

ومنْ عقوباتِها: أنَّها مددٌ منَ الإنسانِ يُمدُّ بهِ عدوَّه عليهِ:

والمقصودُ: أنَّ الذُّنوبَ والمعاصيَ سلاحٌ ومددٌ يمدُّ بها العبدُ أعداءَه، ويعينُهم بها على نفسِه، فيقاتلونَه بسلاحِه، ويكونُ معَهم على نفسِه، وهذا غايةُ الجهْلِ.

ما يَبْلُغُ الأعداءُ مِنْ جاهلٍ … ما يَبْلُغُ الجُاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

ومنْ عقوباتِها: أنَّها تُنسِي العبدَ نفسَهُ، وإذَا نَسِيَ نفسَهُ أهملَها وأفْسدَها وأهْلكَها.

ومِنْ عقوباتِها: أنَّها تزيلُ النِّعمَ الحاضرةَ، وتقطعُ النِّعمَ الواصلةَ، فتُزيلُ الحاصلَ، وتقطعُ الواصلَ، فإنَّ نعمَ اللهِ ما حُفظَ موجودُها بمثلِ طاعتِه، ولا استُجلبَ مفقودُها بمثلِ طاعتِه، فإنَّ مَا عندَه لا يُنال إلا بطاعتِه.

ومنْ عقوباتِها: أنَّها تُبَاعِدُ عنِ العبدِ وليَّه وأنفعَ الخلقِ لَه وأنصحَهمْ له، ومَنْ سعادتُه في قربِه مِنه، وهُو الملكُ الموكَّلُ بِهِ، وتُدْنِي منه عدوَّه وأغَشَّ الخلْقِ لَهُ وأعظمَهمْ ضَرَرًا لَه وهوَ الشيطانُ، فإِنَّ العبدَ إذا عصَى اللهَ تباعدَ مِنْه الملكُ

بقدْرِ تلك المعصِيَةِ، حتَّى إِنَّه ليتباعَدُ عنْه بالكذْبَةِ الواحدةِ مسافةً بعيدةً.

ومن عقوباتِها: أنَّها تستجلبُ موادَّ هلاكِ العبدِ فِي دُنْياه وآخرتِه، فإنَّما الذنوب هي أمراضٌ، متى استحكمتْ قتلتْ ولا بدَّ، وكما أنَّ البدنَ لا يكونُ صحيحًا إلَّا بغذاءٍ يحفَظُ قُوَّتَه، واستفراغٍ يستفرِغُ الموادَّ الفاسِدَةَ والأخْلَاط الردِيئةَ الَّتِي مَتى غلبَتْ عليْهِ أفسدَتْه، وحِمْيةٍ يمتنِعُ بِهَا مِنْ تَناوُلِ ما يُؤْذِيهِ ويخْشَى ضررَهُ، فكذلكَ القلبُ لا تتمُّ حياتُه إِلَّا بغذاءٍ مِن الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ تحفظُ قوَّته، واستفراغٍ بالتوبةِ النَّصوحِ تُستخرَج بها الموادُّ الفاسدةُ والأخلاطُ الردِيئةُ منْه، وحميةٍ تُوجِب له حِفْظَ الصِّحَّةِ وتجنُّب ما يضادُّها، وَهي عبارَةٌ عَنْ تركِ استعمالِ ما يُضادُّ الصحَّة.

* * *

فصل
[العُقُوباتُ الشَّرعِيَّة]

فإنْ لمْ ترُعْكَ هذه العقوباتُ، ولم تجدْ لها تأثيرًا في قلبِك فأحضرِ العقوباتِ الشرعيةَ الَّتي شرعَها اللهُ ورسولُه على الجرائمِ، كَما قطعَ اليدَ فِي سرقَةِ ثلاثةِ دراهِمَ، وقطعَ اليدَ والرِّجْلَ في قطعِ الطريقِ على معصومِ المالِ والنفسِ، وشقَّ الجلدَ بالسوْطِ على كلمةٍ قَذَفَ بِها المحصَنَ، أو قطرةِ خمرٍ يُدخلُها جوْفَه، وقتلَ بالحجَارةِ أشنعَ قِتْلةٍ في إيلاجِ الحشفةِ في فرجٍ حَرامٍ، وخفّف هذهِ العقوبةَ عمَّن لمْ تتمَّ عليه نعمةُ الإحصانِ بمائةِ جلدةٍ، وبنفْيِ

سنةٍ عن وطنِه وبلدِه إلى بلادِ الغربةِ، وفرَّقَ بين رأسِ العبدِ وبدنِه إذا وقعَ علَى ذاتِ رحمٍ محرَّمٍ منه، أو تَرَكَ الصَّلاةَ المفْرُوضَةَ، أو تكلَّم بكلِمةِ كُفْرٍ، وأمرَ بقتْلِ مَنْ وَطئ ذكرًا مثْلَه، وقَتلَ المفعولَ به، وأمر بقتلِ من أتى بهيمةً، وقتل البهيمة معهُ، وعزمَ على تحريق بيوتِ المتخلِّفين عن الصلاةِ في الجماعةِ، وغير ذلك منَ العقوباتِ الَّتي رتَّبها على الجرائم. وجعلها بحكمتِه على حسبِ الدَّواعي إلى تلك الجرائِم، وحسْبِ الوَازِع عنْها.

فَما كانَ الوازِعُ عَنه طَبعيًّا وليْسَ فِي الطِّباع داعٍ إليْهِ اكْتفى فِيه بالتحْرِيم مع التعزِيرِ، ولم يرتِّبْ عليْه حدًّا، كأكْلِ الرَّجيعِ، وشُربِ الدَّمِ، وأكلِ الميتةِ، وما كان فِي الطِّباع داعٍ إليه رتَّبَ عليه مِن العُقوبَةِ بقدْرِ مفسَدتِه، وبقدْرِ دَاعِي الطبْعِ إليه.

فعقُوباتُ الشَّارِع جاءتْ عَلَى أتمِّ الوُجوهِ، وأوفقِها للعقْل، وأقوَمِها بالمصْلحَةِ.

والمقْصودُ: أَنَّ الذنوبَ إِنَّما تترتَّب عليْها العُقوباتُ الشرعِيَّةُ أَوْ القدَريَّةُ أو يجمعُهما اللهُ للعبْدِ، وقدْ يرفعُهما عمَّنْ تابَ وأحسنَ.

* * *

فصلٌ

[تأمُّلاتٌ في بعضِ عُقُوباتِ المعَاصِي]

فاستحضرْ بعضَ العُقوباتِ الَّتِي رتَّبها اللهُ سُبحانَهُ وتعالَى عَلَى الذُّنوبِ، وجوِّز وُصولَ بعضِهَا إليْكَ واجعلْ ذلك داعيًا للنفسِ إلى

هجرانِها، وأنا أسوقُ لك منها طرفًا يكفِي العاقلَ مع التصدِيق بعضُه.

- **فمنْها: الختمُ عَلَى القلوبِ والأسْماعِ**، والغشاوةُ على الأبصارِ، والإقفالُ على القلوبِ، وجعل الأكنَّةِ عليها، والرينُ عليها والطبعُ، وتقلُّبُ الأفئدةِ والأبصارِ، والحيلولةُ بين المرءِ وقلبِه، وإغفالُ القلبِ عن ذكرِ الربِّ، وإنْساءُ الإنسانِ نفسَهُ، وتركُ إرادةِ الله تطهيرَ القلبِ، وجعلُ الصدْرِ ضيقًا حرجًا كأنَّما يصعَّد في السماءِ، وصرفُ القلوبِ عن الحقِّ، وزيادتُها مرضًا على مرضِها، وإرْكاسُها[1] ونكْسُها[2]، بحيث تبقَى منكوسةً كَما ذكرَ الإمامُ أَحْمد[3] عَن حُذيفةَ بْنِ اليَمانِ رضي الله عنهما أنه قَالَ: "**القُلوبُ أربعةٌ: فقلبٌ أجرد[4] فيه سراجٌ يُزْهِرُ[5] فَذَلِكَ قلبُ المؤمنِ، وقلبٌ أغلفُ[6] فذلك قلبُ الكافر، وقلب منكوسٌ فذلك قلبُ المنافقِ، وقلبٌ تمده مادتان: مادةُ إيمانٍ ومادةُ نفاقٍ؛ وهو لما غلب عليه منهما**".

- **ومنْها: التثبيطُ عن الطاعَةِ، والإقعادُ عنها.**

- **ومنْها: جعلُ القلبِ أصمَّ لا يسمعُ الحقَّ، أبكمَ لا ينطقُ به، أعمَى لا** يراه، فتصيرُ النسبةُ بَين القلْبِ وبينَ الحقِّ الَّذي لا ينفعُه غيرُه، كالنسبةِ بين

---

(١) **إركاسها**: يقال ركست الشيء إذا رددته ورجعته. والركس هو قلب الشيء على رأسه أو رد أوله على آخره. انظر اللسان (مادة: ركس). انظر النهاية (٢/ ٢٥٩).

(٢) **النكس**: هو القلب على الرأس. انظر النهاية (٥/ ١١٥).

(٣) المسند (٣/ ١٧).

(٤) **أجرد**: ليس فيه غش ولا خداع. انظر اللسان (مادة: جرد).

(٥) **يزهر**: يتلألأ. انظر اللسان (مادة: زهر).

(٦) **أغلف**: عليه غشاء من سماع الحق وقبوله. انظر اللسان (مادة: غلف).

أُذنِ الأصمِّ والأصواتِ، وعين الأعمَى والألوانِ، ولسانِ الأخرسِ والكلامِ، وبهذا يُعلَم أنَّ العمَى والصمَمَ والبكمَ للقلْبِ بالذاتِ والحقيقةِ، وللجوارحِ بالعرضِ والتبعيَّةِ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

- ومنْها: **الخسفُ بالقلبِ كما يخسفُ بالمكانِ وما فِيه**، فيخسفُ بِه إلى أسفلِ السافلينَ، وصاحبُه لا يشعُر، وعلامةُ الخسفِ به أنَّه لا يزالُ جوَّالًا حول السفلِيَّاتِ والقاذوراتِ والرَّذائلِ، كما أنَّ القلبَ الذي رفعه اللهُ وقرَّبَه إليه لا يزالُ جوَّالًا حول العرشِ.

- ومنها: **البعدُ عن البرِّ والخيرِ ومعالي الأعمالِ والأقوالِ والأخلاقِ.**

قال بعضُ السَّلفِ: "إنَّ هذه القلوبَ جوَّالةٌ، فمنْها ما يجولُ حولَ العرشِ، ومنْها مَا يجولُ حول الحُشِّ"(١).

- ومنْها: **مسخُ القلبِ**، فيُمسخُ كما تمسخُ الصُّورةُ، فيصيرُ القلبُ عَلَى قلبِ الحيوانِ الَّذي شابهَه في أخلاقِه وأعمالِه وطبيعتِه، فمِنَ القلوبِ مَا يُمسخُ على قلْبِ خِنزيرٍ لشدَّةِ شَبه صاحِبه بِه، ومنْها ما يُمسخُ على خُلُقِ قَلْبِ كَلبٍ أو حِمَارٍ أو حَيَّةٍ أو عقربٍ وغيرِ ذلكَ، وهذا تأويلُ سُفيانَ بْنِ عيينةَ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

- ومنها: **مكْرُ اللهِ بالماكِرِ**، ومخادعتُه للمخادِعِ، واستهزاؤُه بالمستهزِئِ،

---

(١) الحُشُّ: واحدة الحشُوش: وهي الكُنُف ومواضع قضاء الحاجة. انظر النهاية (١/ ٣٩٠).

وإزاغتُه للقلْبِ الزائغِ عنِ الحقِّ.

- **ومنْها: نكسُ القلْبِ حتَّى يرَى الباطِلِ حقًّا، والحقَّ باطلًا**، والمعروفَ مُنكرًا، والمنكرَ معروفًا، ويُفسدُ ويَرى أنه يُصلحُ، ويصدُّ عن سبيلِ الله وهو يرَى أنَّه يدعُو إليْها، ويشْتَرِي الضلالَةَ بالهُدَى، وهُو يَرَى أنَّه على الهدَى، ويتبعُ هواه وهو يزعُم أنَّه مُطِيع لموْلاهُ، وكلُّ هذا مِنْ عقوباتِ الذُّنوبِ الجارِيةِ على القلْبِ.

- **ومنْها: حِجابُ القلْبِ عَنِ الربِّ في الدنْيا، والحِجابُ الأكبرُ يومَ القِيامة**، كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٤ – ١٥] فمنعتْهم الذُّنوبُ أن يقطعُوا المسافَةَ بينهُمْ وبين قلوبِهم، فيصِلوا إليها فيرَوا ما يصلحُها ويزكِّيها، وما يُفْسِدُها ويشقِيها، وأن يقطعُوا المسافةَ بين قلوبهم وبين ربِّهم، فتصلَ القلوبُ إليه فتفوزَ بقرْبِهِ وكرامتِه، وتقرَّ به عَينًا وتطيبَ بِه نفسًا؛ بل كانتِ الذنوبُ حِجابًا بينهُمْ وبينَ قُلوبِهمْ، وحِجابًا بينهُمْ وبين ربِّهم وخالقِهم.

- **ومنْها: المعيشةُ الضَّنكُ في الدنيا وفي البرزخِ والعذابُ في الآخرةِ**، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

ولا تقرُّ العيْنُ، ولا يهدَأ القلبُ، ولا تطمئنُّ النفسُ إلا بإلهها ومعبُودِها الَّذِي هو حقٌّ، وكلُّ معبودٍ سواه باطلٌ، فمنْ قرَّتْ عينُه بالله قرَّتْ به كلُّ عينٍ، ومنْ لم تقرَّ عينُه بالله تقطَّعتْ نفسُه على الدنْيا حسراتٍ، واللهُ تعالَى إنَّما جعلَ

الحياةَ الطيبةَ لمنْ آمَنَ بِه وعمل صالحًا كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

ففازَ المتَّقونَ المحسِنونَ بنعيمِ الدنْيا والآخِرة؛ وحصلُوا على الحياةِ الطيِّبةِ في الدَّاريْنِ؛ فإنَّ طيبَ النفسِ وسُرورَ القلْبِ وفرحهُ ولذَّتهُ وابتهاجَه وطمأنينتَه وانشِراحَهُ ونورَه وسعتَه وعافِيته؛ في تركِ الشَّهواتِ المحرَّمة والشُّبهاتِ الباطِلة، وَهُو النعيمُ على الحقِيقةِ، ولا نسبةَ لنعيمِ البدنِ إليه.

* فَقدْ كان يقولُ بعضُ من ذاقَ هذه اللَّذة: لو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ عليه لجالدُونا عليه بالسُّيوفِ.

* **وقال آخرُ:** إنه ليمرُّ بالقلبِ أوقاتٌ أقولُ فِيها: إنْ كان أهل الجنةِ في مثل هذا إنَّهم لفِي عيشٍ طيِّبٍ.

ولا تظنَّ أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣ – ١٤] مُختصٌّ بيومِ المعادِ فقطْ، بل هؤلاءِ في نعيمٍ في دورِهمُ الثَّلاثةِ، وهؤُلاءِ في جحيمٍ في دورهمُ الثَّلاثة، وأيُّ لذَّةٍ ونعيمٍ في الدنْيا أطيبُ من برِّ القلْبِ، وسلامةِ الصدْرِ، ومعرفةِ الربِّ تعالى ومحبَّتِه، والعملِ على موافقتِه؟!

وهلِ العيشُ في الحقيقةِ إلا عيشُ القلبِ السَّليمِ؟ وقد أثنى اللهُ تعالى على خليلِه عليه السلام بسلامةِ قلبه فقال: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٣ – ٨٤].

ولا تتمُّ له سلامتُه مُطلقًا حتَّى يسْلَم من خمسَةِ أشْيَاء: من شركٍ يناقضُ التوحيدَ، وبدْعَةٍ تُخالِفُ السُّنَّةَ، وشهْوةٍ تُخالِفُ الأمْرَ، وغفْلَةٍ تُناقِضُ الذكرَ، وهوىً يُناقِض التجريدَ والإخلاصَ.

وهذه الخمسةُ حجبٌ عن الله، وتحتَ كلِّ واحدٍ منها أنواعٌ كثيرةٌ، تتضمَّنُ أفرادًا لا تنْحصِرُ.

ولِذلك اشتدتْ حاجةُ العبْدِ، بلْ ضرورتُه إِلى أنْ يسألَ اللهَ أَنْ يهْدِيَهُ الصِّراطَ المستقِيمَ؛ فليس العبدُ أحوجَ مِنه إِلى هذهِ الدعْوةِ، وليْس شيءٌ أنفعَ له منْها.

فمِنْ أعظمِ عقوباتِ الذنوبِ الخروجُ عن الصِّراطِ المستقيمِ فِي الدنْيا والآخرَةِ.

* * *

فصل

[أنواعُ الذُّنُوبِ والمعَاصِي]

ولما كانتِ الذنوبُ متفاوتةً فِي درجَاتِها ومفاسِدِهَا تفاوتتْ عقوباتُها في الدنيا والآخرةِ بحسب تفاوتِها.

ثُمَّ هذه الذنوبُ تنقسمُ إلى أربعةِ أقْسامٍ: ملكِيَّة، وشيْطَانِية، وسبعيَّة، وبهيميَّة، ولا تخرُج عَنْ ذلكَ.

فالذنوبُ الملكِيَّةُ: أَنْ يَتعَاطى مَا لَا يصْلُح له من صفاتِ الرُّبوبيَّة، كالعظمةِ،

والكبريَاءِ، والجبرُوتِ، والقهر، والعلُوِّ، واستعبادِ الخلْقِ، ونحْوِ ذلكَ.

ويدخلُ في هذَا: الشركُ بالربِّ تعالى وهو نوعانِ: شركٌ به في أسمائِه وصفاتِه وجعل آلهةً أخرَى معَه، وشركٌ به فِي مُعَاملتِه، وهذا الثَّانِي قدْ لا يُوجِبُ دُخولَ النَّارِ، وإنْ أحبطَ العمَل الَّذِي أشْركَ فيه مع الله غيرَهُ.

وَهذا القسْمُ أعظمُ أنواعِ الذُّنوبِ، ويدخُل فِيه القولُ على الله بلا علمٍ في خلقِه وأمرِه؛ فمَن كان مِن أهل هذه الذُّنوبِ، فقد نازع اللهَ سبحانَه في ربوبيتِه وملكِه، وجعلَ له ندًّا، وهذا أعظمُ الذنوبِ عند اللهِ، ولا ينفَعُ معه عملٌ.

وأمَّا الشيطانِيةُ: فالتشبُّه بالشيطانِ، في الحسدِ والبغْيِ والغِشِّ والغِلِّ والخِداع والمكْرِ، والأمرِ بمعَاصِي الله وتحسِينِها، والنهيِ عَن طاعتِه وتهجِينِها، والابْتدَاعِ في دِينِه، والدَّعْوةِ إِلى البِدَعِ وَالضَّلالِ.

وَهذَا النَّوعُ يَلِي النوعَ الأوَّلَ فِي المفسدَةِ، وإنْ كانتْ مفسدتُه دُونَه.

وأمَّا السبعيَّةُ: فذُنوبُ العُدْوانِ والغَضَبِ وسفْكِ الدِّمَاءِ، والتوثُّبِ عَلَى الضُّعفَاءِ والعَاجِزينَ، ويتولَّد مِنها أنواعُ أَذى النوعِ الإنسَانِيّ، والجرأةُ على الظلمِ والعُدْوَانِ.

وأما الذنوبُ البهيميَّةُ: فمِثلُ الشَّرهِ، والحرصِ على قضاءِ شهوةِ البطْنِ والفرْجِ؛ ومنْها يتولَّد الزِّنَى والسرقَةُ وأكلُ أمْوالِ اليَتامَى والبخلُ والشحُّ والجبنُ والهلَعُ والجزَعُ وغيرُ ذلك.

وَهذا القسْمُ أكثرُ ذنوبِ الخلْقِ لعجزِهمْ عَنِ الذُّنوبِ السبعيَّةِ والملكيَّةِ،

ومنه يدخُلون إلى سائرِ الأقسَامِ، فهُوَ يجرُّهم إليها بالزِّمامِ، فيدخُلونَ مِنه إلى الذُّنوبِ السبعيَّةِ، ثُمَّ إلى الشيطَانيَّةِ، ثُمَّ إلى منازَعةِ الربوبيَّة، والشرْكِ في الوحدانيَّةِ.

ومنْ تأمَّل هَذَا حقَّ التأمُّلِ تبيَّنَ لَه أَنَّ الذنوبَ دِهليزُ الشرْكِ والكفرِ، ومنازعةِ الله فِي ربوبيَّتِه.

* * *

فصل
[الذنوبُ: صِغائرٌ وكبائِرٌ]

وقدْ دلَّ القرآنُ والسنَّةُ وإجماعُ الصحابةِ والتابعِينَ بعدَهم والأئِمَّةُ عَلى أنَّ مِن الذنوبِ كبائرَ وصغائرَ.

قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢].

*** وفِي الصَّحيح[1] عنه ﷺ أنَّه قال: "الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ مُكفِّراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتُنبتِ الكبائرُ".**

*** وفي "الصحيحيْن[2]" عنه ﷺ: "اجتنبُوا السبعَ الموبقاتِ. قيل: وما هُنَّ يا**

(١) مسلم (٢٣٣).

(٢) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم(٨٩).

رسولَ الله؟ قالَ: **الإشراكُ بالله، والسحْرُ، وقتلُ النفسِ التي حَرَّمَ الله إلَّا بالحقِّ، وأَكلُ مالِ اليتيم، وأَكلُ الرِّبَا، والتَّوَلِّي يومَ الزحفِ، وقذْفُ المُحْصَناتِ الغافِلَاتِ المؤمناتِ**".

فالشركُ أظلَمُ الظلْمِ، والتوحيدُ أعدلُ العدلِ، فما كان أشدَّ منافاة لهذا المقصودِ فهو أكبرُ الكبائرِ، وتفاوتُه في درجاتِها بحسب مُنافاتِها له، وما كان أشدَّ موافقةً لهذا المقصودِ فهو أوجبُ الواجباتِ وأفرضُ الطَّاعاتِ.

فتأمَّلْ هذا الأصلَ حقَّ التأمُّل، واعتبرْ تفاصيلَهُ تعرفْ بِه حكمةَ أحكمِ الحاكِمينَ وأعلَم العالمينَ فيما فرضَهُ على عِبادِه، وحرَّمه عليْهم، وتفاوت مراتِب الطَّاعاتِ والمعَاصِي.

فلمَّا كانَ الشرْكُ بالله منافيًا بالذَّاتِ لهذا المقصودِ كَانَ منْ أكبرِ الكبائرِ على الإطلاقِ، وحرَّم اللهُ الجَنَّةَ عَلَى كُلِّ مشركٍ، وأباحَ دمَهُ ومالَه وأهلَه لأهلِ التوحيدِ، وأن يتَّخذوهُم عبيدًا لهم، لما تركُوا القيامَ بعبوديَّتِه، وأَبى الله سبحانه أن يقبلَ من مشركٍ عملًا، أو يقبلَ فيه شفاعةً، أو يستجيبَ له في الآخرةِ دعوةً، أو يقبَل له فيها عثرةً، فإنَّ المشركَ أجهلُ الجاهلينَ بالله، حيثُ جَعلَ لَه منْ خلْقِه نِدًّا، وذَلك غايةُ الجهْلِ بِهِ، كَما أَنَّه غايةُ الظُّلْمِ مِنْه، وإنْ كان المشرِك لم يظلِمْ ربَّه، وإنما ظلَمَ نفسَهُ.

* * *

فصل

[الشركُ وأنواعُه]

الشرْكُ شرْكَانِ:

- شِركٌ يتعلَّق بذاتِ المعبودِ وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه.
- وشركٌ في عبادَتِه ومعاملتِه، وإنْ كانَ صاحبُه يعتقِدُ أنَّه سُبحانَه لَا شَرِيكَ لَه فِي ذَاتِه، وَلَا فِي صِفَاتِه، وَلَا فِي أفْعَالِه.

والشركُ الأوَّلُ نوعَان:

أَحدهما: شِرْكُ التعْطيلِ:

وَهُو أقبحُ أنواعِ الشِّرْكِ، كشرْكِ فِرعَوْنَ إِذ قَالَ: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى مخبِرًا عنْه أنَّه قال لهامَان: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧].

والشِّرْكُ والتعطِيلُ متلازِمَانِ: فَكلُّ مشرِكٍ مُعطِّلٌ، وكلُّ معطِّلٍ مشركٌ، لكنَّ الشرْكَ لا يستلْزِم أصْلَ التعْطِيلِ، بَل قدْ يَكونُ المشْرِكُ مقرًّا بالخالِق سبْحانَه وصفَاتِه، ولكنَّه عطَّل حقَّ التوحِيد.

وأصلُ الشركِ وقاعدَتُه الَّتِي يرجِعُ إليْها، هو التعطِيلُ، وَهُو ثلاثَةُ أقسامٍ:

١- تعطيلُ المصنوعِ عَن صانعِه وخالقِه.

٢- وتعطيلُ الصَّانِع سُبحانَهُ عَن كمالِه المقدَّس بتعطِيلِ أَسمائِه وأوْصَافِه

وأفعالِه.

٣- وتعطيلُ معاملَتِه عَمَّا يجِبُ علَى العبْدِ من حقيقَةِ التَّوحِيدِ.

النوعُ الثَّاني: شرْك من جعل مع الله إلهًا آخرَ ولم يعطِّلْ أسماءَه وصفاته وربوبيَّته كشرْكِ النَّصارَى الذينَ جعلُوه ثالثَ ثلاثةٍ، فجعلُوا المسيحَ إلهًا، وأمَّه إلهًا.

- ومِنْ هَذَا شرْكُ المجُوسِ القائِلين بإسْنادِ حوادث الخيْرِ إلَى النُّورِ، وحوادِث الشرِّ إلى الظلمةِ.

- ومنْ هذَا شركُ الَّذي حاجّ إبراهيمَ في ربِّه: ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهذا جعلَ نفسَه ندًّا لله تعالَى يُحيي ويميتُ بزعمِه، كما يحيي اللهُ ويميتُ.

- ومِنْ هذا شرْكُ كثيرٍ ممَّنْ يشركُ بالكواكِب العلويَّاتِ، ويجعَلُها أربابًا مدبِّرة لأمْرِ هَذا العالَم، كما هُو مذْهبُ مشركِي الصَّابِئة وغيرِهم.

ومِنْ هَذَا شرْكُ عُبَّادِ الشمْس وعُبَّادِ النَّار وغيرِهم.

* * *

فصل

[الشرْك في العِبَادةِ]

وَأمَّا الشِّرْكُ فِي العِبادَةِ: فَهُو أسْهلُ مِنْ هَذَا الشرْكِ، وأخفُّ أمرًا، فإنَّه يصْدُر ممَّنْ يعتقِدُ أنَّه لَا إلَه إلَّا الله، وأنَّه لا يضُرُّ ولا ينفَعُ ولا يُعطِي ولا

يمْنَعُ إلا اللهُ، وأنَّه لَا إلهَ غيرُه ولا ربَّ سِواه، ولكنْ لا يُخلصُ لله في معاملَتِه وعبوديَّتِه، بَلْ يعمَلُ لحظِّ نفسِه تارةً، ولطلَبِ الدُّنْيا تارةً، ولطلَبِ الرفعَةِ والمنزلَةِ والجَاهِ عنْدَ الخلْقِ تَارةً، فللهِ مِنْ عملِه وسعْيِه نصيبٌ، ولنفْسِه وحظِّه وهوَاه نصيبٌ، وللشيطانِ نصيبٌ، وللخلْقِ نصيبٌ، وهذَا حالُ أكثرِ النَّاسِ.

فالرياءُ كلُّه شركٌ، قَال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

* وَكَانَ مِنْ دُعاءِ عُمرَ بْنِ الخطَّابِ ﷺ: **"اللهمَّ اجعلْ عَمِلي كُلَّه صالـحًا، واجعلْه لوجْهِك خَالصًا، ولا تجعلْ لأحدٍ فِيه شيئًا"**.

وهذا الشرْكُ فِي العِبَادَةِ يبطِلُ ثوابَ العَملِ، وقدْ يُعاقِب عليْه إذا كان العملُ وَاجِبًا، فإنه يُنزلُه منزلةَ مَنْ لم يعمَلْ؛ فيُعاقِبُ على تركِ الأمْرِ، فإنَّ اللهَ سبحانَه إنَّما أمَر بعبادَتِه عبادةً خالصةً، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥].

فمنْ لم يُخلِصْ لله في عبادتِه لم يفعلْ مَا أُمِرَ بِه، بَل الَّذِي أَتى بِه شيءٌ غيرُ الَّذِي أُمِر بِه: فلا يصحُّ، ولا يُقبلُ مِنْهُ، ويقولُ اللهُ: **"أَنَا أَغْنَى الشُّركَاءِ عن الشِّرْكِ، فمَنْ عَمِلَ عَملًا أشرَكَ مَعِي فيه غَيْرِي فهُو للَّذي أشْرَكَ بِه، وأنا منهُ بريءٌ"**(١).

وهذا الشركُ ينقسمُ إلى مغفورٍ وغيرِ مغفورٍ، وأكبرَ وأصغرَ.

---

(١) مسلم (٢٩٨٥).

* **والنوعُ الأوَّلُ:** ينقسِمُ إِلَى كبيرٍ وأكْبَرَ، وليسَ شيءٌ مِنه مغفورًا، فمِ الشركُ باللهِ في المحبَّةِ والتعظيمِ، أن يحبَّ مخلوقًا كما يحبُّ اللهَ، فهذَا مِن الشرْكِ الَّذِي لا يغفِرُه اللهُ، وَهُو الشِّرْكُ الَّذِي قَالَ سُبحانَه فِيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقالَ أصْحابُ هَذَا الشرْكِ لآلهتِهِمْ وقد جمعهُمُ الجحِيمُ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ – ٩٨].

* * *

فصل
[الشركُ في الأفعالِ والأقوالِ والإراداتِ والنِّيَّاتِ]

ويتبعُ هَذا الشركَ الشركُ بِه سبحانَه في الأفعالِ والأقوالِ والإراداتِ، والنيَّاتِ.

فالشِّرْكُ فِي الأفعَالِ كالسجُودِ لغيرِه، والطَّوافِ بغيرِ بيتِه، وحَلْقِ الرأسِ عبوديةً وخُضوعًا لغيرِه، وتقبيلِ الأحجارِ غيرِ الحجرِ الأسوَدِ، وتقبيلِ القبُور واستلامِها، والسجودِ لها، ولقدْ لَعنَ النبيُّ ﷺ مَنِ اتَّخذَ قُبورَ الأنبياءِ والصَّالحينَ مساجِدَ يصلِّى للهِ فِيها، فكيفَ بمنِ اتَّخذ القبورَ أوثانًا يَعبُدُها مِن دُونِ الله؟

* فِفِي الصحيحينَ[1] عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "**لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارَى، اتَّخذُوا مِن**

(١) البخاري (٤٣٥)، ومسلم(٥٢٩).

قبورِ أنبيائِهم مَساجِدَ".

وَمِنَ الشركِ به سبحانَه الشركُ به في اللفظِ، كالحلفِ بغيرِه، كما رواه الإمامُ أحمدُ وأبوداودَ عنه ﷺ أنه قالَ: "منْ حلفَ بغيرِ الله فقدْ أشْركَ" صحَّحهُ الحاكمُ وابنُ حبَّان[1].

ومنْ ذلكَ قولُ القائلِ للمخلُوقِ: ما شاء اللهُ وشئتَ، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال له رجلٌ: "مَا شَاءَ اللهُ وشئْتَ، فقال: "أجعلتَني لله ندًّا؟ قُل: ما شاءَ اللهُ وحدَه"[2].

وأمَّا الشركُ في الإراداتِ والنياتِ فذلك البحرُ الَّذِي لا ساحِل لَهُ، وقلَّ مَنْ ينجُو منه؛ فمنْ أرادَ بعملِه غيرَ وجْهِ الله أو نَوى شَيئًا غيرَ التقرُّب إليْهِ وطلبِ الجزاءِ منْه، فقدْ أشْرَكَ في بيتِه وإرادتِه.

والإخلاصُ: أنْ يخلصَ لله في أقوالِه وأفعالِه وإرادتِه ونيَّتِه، وهذه هِي الحنيفيَّةُ - مِلةُ إبراهِيم - الَّتي أَمرَ اللهُ بِها عِبادَه كُلَّهم، ولا يُقْبَلُ منْ أحدٍ غيرُها، وهِي حقيقةُ الإسْلَامِ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهي ملة إبراهيم التي من رَغِبَ عنها فهو من أسفه السفهاء.

* * *

(١) أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، والمسند (٢/ ٣٤، ٨٦ - ٨٧، ١٢٥)، والحاكم (١/ ١٨) و(٤/ ٢٩٧).

(٢) ابن ماجه (٢١١٧)، والمسند (١/ ٢١٤، ٢٢٤).

فصل
[حقيقةُ الشِّركِ]

حقيقةُ الشرْكِ: هو التشبُّه بالخالقِ والتشبيهُ للمخلوق به.

هذا هو التشبيهُ في الحقيقةِ، لا إثباتُ صفاتِ الكمالِ الَّتي وصف اللهُ بِها نفسَه ووصفَه بها رسولُ الله ﷺ فعكس من نكَّس اللهُ قلبه، وأعمى عينَ بصيرتِه، وأرْكَسه بلبْسِه الأمرَ، وجعلَ التَّوحيدَ تشبيهًا، والتشبيهَ تعظيمًا وطاعةً؛ فالمشرِكُ مشبِّه للمخلوقِ بالخالِق في خصائصِ الإلهيةِ.

فَإنَّ من خصائصِ الإلهيَّة التفرُّد بملْك الضرِّ والنفْعِ والعطاءِ والمنْعِ، وذلك يُوجبُ تعليقَ الدُّعاءِ والخوْفِ والرَّجاءِ والتوكُّل بِه وحدَهُ، فمَنْ علَّق ذلك بمخلوقٍ فقدْ شبَّهه بالخالِق، وجعل ما لا يملك لنفسِه ضرًّا ولا نفعًا ولا موْتًا ولا حَياةً ولا نشورًا، فضْلاً عن غيرِه شبيهًا لمنْ لَهُ الأمْرُ كُلُّه، فأزِمَّة الأمُورِ كلِّها بيدَيْه، ومرجِعُها إليْه، فَما شَاءَ كَانَ ومَا لَمْ يشأْ لم يكُنْ، لَا مَانعَ لما أَعْطَى، ولا مُعْطِي لما مَنَع، بَلْ إِذَا فَتح لعبْدِه بابَ رحمتِه لم يُمسكْها أحدٌ، وإن أمسَكَها عنْه لم يُرسلْها إليه أحدٌ.

فمِنْ أقبَحِ التشبيهِ تشبيهُ هَذَا العاجزِ الفقيرِ بالذَّاتِ بالقادِر الغنيِّ بالذَّات.

* وَفي الصحيح[1] عنه ﷺ أَنَّه قَال: "**قال الله عزَّ وجلَّ: وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ ذَهب**

---

(١) البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم(٢١١١).

يخلُقُ خَلْقًا كخلْقِي،فليخلُقُوا ذرَّةً، أو ليخلُقُوا حبَّةً أو ليخلُقُوا شعيرة"
فنبَّه بالذرَّة والشعيرَة على ما هُو أعظمُ مِنها وأكبرُ.

* * *

فصل

[سُوء الظنِّ بالله]

إذا تبيَّن هذا فهاهنا أصلٌ عظيمٌ يكشِف سرَّ المسألةِ، وهو أنَّ أعظمَ الذنوبِ عند الله إساءةُ الظنِّ به، فإنَّ المسِيءَ بِه الظنَّ قد ظَنَّ به خلافَ كمالِه المقدَّسِ، وظنَّ به ما يناقِض أسماءَه وصفاتِه، ولهذا توعَّد اللهُ سبحانَه الظانِّينَ به ظنَّ السوءِ بما لم يتوعَّدْ به غيرَهم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، وقالَ تعالَى لمنْ أنكرَ صفةً من صفاتِه: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

وَقالَ تعالَى عنْ خليلِه إبراهيمَ أنَّه قال لقومِه: ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧].

فأمَّا القادرُ على كلِّ شيءٍ، الغنيُّ بذاتِه عن كلِّ شيءٍ، العالم بكلِّ شيءٍ، الرحمن الرحيمِ الَّذي وسعتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، فإدخالُ الوسائطِ بينه وبين خلقِه ينقصُ بحقِّ ربوبيَّتِه وإلهيَّتِه وتوحيدِه، وظنٌّ به ظنَّ السوءِ، وهذَا يستحيلُ أن يشرعه لعبادِه، ويمتنع في العقول والفِطَر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوقَ كلِّ قبيحٍ.

فصل

[القولُ على الله بغَيْرِ علْمٍ]

ويَلي ذلكَ فِي كبر المفسدةِ: القولُ عَلى الله بلَا علمٍ في أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ووصفُه بضدِّ ما وصف بِه نفسَهُ ووصَفَه به رسولُهُ، فهو أشدُّ شيءٍ مناقضةً ومنافاةً لحكْمةِ من له الخلق والأمرُ، وقدحٌ في نفس الربوبيةِ وخصائص الربِّ، فإن صدرَ ذلك عن علمٍ فهو عنادٌ أقبحُ من الشِّرْكِ وأعظمُ إثمًا عند الله.

والقولُ على الله بلا علمٍ والشركُ متلازِمانِ، ولما كانتِ البدعُ المضلةُ جَهْلًا بصفَاتِ الله، تكذيبًا بما أَخْبَر بِه عنْ نفسِه وأخبرَ به عنه رسولُه عِنادًا وجهْلًا؛ كانتْ من أكبرِ الكبائِر، وإِنْ قصرتْ عنِ الكفْرِ.

ومعلومٌ أنَّ المذنِبَ إنَّما ضررُه على نفسِه، وأمَّا المبتدِعُ فضررُه على النوْعِ، وفتنةُ المبتدِع في أصلِ الدِّينِ، وفتنةُ المذنب في الشهْوةِ، والمبتدعُ قد قعدَ للنَّاسِ على صراطِ الله المستقيمِ يصدُّهم عنه، والمذنب ليس كذلك، والمبتدعُ قَادحٌ في أوصافِ الربِّ وكمالِه، والمذنبُ ليْس كذلِكَ، والمبتدعُ مُناقِضٌ لما جاء به الرَّسُولُ ﷺ، والعاصِي ليس كذلكَ.

والمبتدِعُ يقطعُ على النَّاسِ طريقَ الآخِرَةِ، والعاصِي بطيءُ السير بسبب ذُنوبِه.

* * *

فصل
[مَفْسَدةُ القَتْلِ]

ثمَّ لما كَان الظلمُ والعُدوانُ منافيَيْن للعدْلِ الَّذِي به قَامتِ السمواتُ والأرضُ، وأَرسلَ اللهُ سبحانَه رُسلَه عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ وأنزلَ كُتبَه ليقومَ النَّاسُ بِهِ، كان من أكبر الكبائرِ عندَ الله، وكانتْ درجتُه في العظمةِ بحسْبِ مفسدتِه في نفسِه، وكان قتلُ الإنْسانِ ولده الطفلَ الصغيرَ الَّذي لا ذنْبَ لَهُ - وقدْ جَبل الله سبحانه القلوبَ على محبَّتِه ورحمتِه وعطَفِها عليه، وخصَّ الوَالِدَيْنِ من ذلك بمزيةٍ ظاهرة، فقتله خشية أن يشاركَه في مطعمِه ومشْربه ومالِه - منْ أقْبحِ الظلْمِ وأشدِّه، وكذلك قتلُه أبويْه اللَّذيْنِ كَانَا سبَبَ وُجودِه، وكذلك قتلُه ذا رحِمِه.

وتتفاوتُ درجاتُ القتْلِ بحسْبِ قبْحِه واستحقاقِ من قتلَه للسعْيِ في إبقَائِه ونصيحَتِه.

- ولهذَا كَان أشدُّ الناسِ عَذابًا يومَ القيامة مَنْ قتل نبيًّا أو قتلَهُ نبيٌّ.
- ويليهِ من قتل إِمامًا أو عالـمًا يأمُر النَّاسَ بالقسْطِ ويدعُوهمْ إلى الله وينصحُهمْ فِي دينِهم، وقد جعلَ اللهُ سبحانَه جزاءَ قتْلِ النَّفْسِ المؤمنَةِ عَمدًا الخلُودَ في النَّارِ، وغضبَ الجبَّارِ، ولَعْنَتَه، وإعدادَ العذابِ العظيمِ لهُ، هذا مُوجبُ قتل المؤمِن عَمدًا ما لم يمنَعْ منه مانِعٌ.

ولما كانت مفسدةُ القتْلِ هذه المفسدةَ قال اللهُ تَعَالى:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢].

* وفي صحيح البخاريِّ(١) أيضًا عن ابْنِ عمرَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: "لا يزالُ المؤمنُ في فُسحةٍ(٢) من دينه ما لم يُصِبْ دمًا حَرامًا".

* وذكر البخاريُّ(٣) أيضًا عن ابن عمر قال: "مِنْ ورطاتِ الأمورِ الَّتي لا مخرجَ لمن أوقع نفسَهُ فيها: سفكُ الدم الحرامِ بغير حلِّهِ".

* وفي الصحيحينِ(٤) عن أبي هريرة يرفعه: "سِبابُ المسلمِ فسوقٌ، وقِتالُه كفرٌ".

* وفيهما(٥) أيضًا عنه ﷺ: "لا ترجعُوا بعدِي كفَّارًا يضربُ بعضُكمْ رقابَ بعْضٍ".

* وفي صحيح البخاري(٦) عنه ﷺ: "مَنْ قَتل مُعاهدًا لم يُرِحْ رائحةَ الجنَّةِ، وإنَّ ريحَها ليُوجدُ من مسيرةِ أربعينَ عامًا".

هذه عقوبةُ قاتِلِ عدوِّ الله إِذَا كَان في عهْدِه وأمانِه، فكيفَ عقوبةُ قاتلِ عبْدِه المؤمنِ؟! وإِذَا كانتِ امرأةٌ قد دخلتِ النَّارَ في هرَّةٍ حبستْها حتَّى ماتتْ

(١) البخاري (٦٨٦٢).

(٢) الفسحة: السعة. انظر اللسان (مادة: فسح).

(٣) البخاري (٦٨٦٣).

(٤) البخاري (٤٨)، ومسلم(٦٤)، ولكن من حديث ابن مسعود، أما حديث أبي هريرة فعند ابن ماجه (٣٩٤٠).

(٥) البخاري (٧٠٧٧)، ومسلم(٦٦).

(٦) البخاري (٣١٦٦).

جوعًا وعطشًا، فرآها النبي ﷺ في النارِ، والهرةُ تخدِشُها في وجهِها وصدرِها، فكيف عقوبة من حبس مؤمنًا حتَّى مات بغير جُرْمٍ؟ وفي بعض السنن[1] عنه ﷺ: **"لزوالُ الدُّنيا أهونُ عند الله من قتل مؤمنٍ بغير حقٍّ"**.

* * *

فصل
[مَفْسَدةُ الزِّنَا]

ولما كانتْ مفسدةُ الزِّنى من أعظمِ المفاسِد، وهي منافيةٌ لمصلحةِ نظامِ العالمِ في حفْظِ الأنسَابِ، وحمايةِ الفُرُوج، وصيانةِ الحرماتِ، وتوقِّي ما يُوقع أعظمَ العداوةِ والبغْضاءِ بينَ النَّاسِ، من إفسادِ كُلٍّ منهُمْ امرأةَ صاحِبه وابنته وأخته وأمّه، وفي ذَلك خَرابُ العالمِ، كانتْ تَلي مفسدةَ القتْلِ في الكبرِ، ولهذَا قرنَها اللهُ سبحانَه بِها في كتابِه، ورسولُه ﷺ في سننه.

قال الإمامُ أحمدُ: لا أعلمُ بعد قتل النفس شيئًا أعظم مِنَ الزِّنَا.

وقدْ أكَّد اللهُ سبحانَه حرمَتَهُ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

فقرَنه بالشرْكِ وقتلِ النفْسِ، وجعلَ جزاءَ ذلكَ الخلودَ في العذابِ

(1) الترمذي (١٣٩٥)، والنسائي (٣٩٨٧).

المضاعَفِ، ما لم يرْفَعِ العبدُ مُوجبَ ذَلك بالتوْبَةِ والإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ.

ولما كَان مبدأُ ذلك من قِبَلِ البصرِ جَعل الأمْر بغضِّه مقدَّمًا على حفظِ الفرْجِ، فإن الحوادِث مبدؤُها من النظر، كَما أن معْظَم النَّارِ من مستصْغَرِ الشَّررِ، فتكونُ نظرةٌ، ثم خطرةٌ، ثم خطوةٌ، ثم خطيئةٌ.

ولهذا قيل: من حفظَ هذه الأربعةَ أحرزَ دِينه: اللحظاتِ، والخطراتِ، واللفظاتِ، والخطُواتِ.

فينبغِي للعبد أن يكون بوّاب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، يُلازِمُ الرِّباطَ على ثُغورِها، فمنْها يدخُل عليه العدوُّ، فيجوسُ خلالَ الديارِ، ويتّبر مَا علا تتبيرًا.

* * *

فصل

[أبوابُ المعاصي الأربعةِ]

وأكثرُ ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة؛ فنذكُر فِي كلِّ بابٍ منها فصلًا يليقُ به:

فأمَّا اللحظاتُ: فهي رائد الشهوةِ ورسولُها، وحفظها أصل حفظِ الفرجِ، فمنْ أطلقَ بصرَه أورد نفسَه مواردَ الهلكاتِ.

قالﷺ: "**إيَّاكمْ والجلوسَ عَلى الطُّرقاتِ**". قالوا: يا رسول الله مجالسنا ما لنا بدٌّ منها! قال: "**فإنْ كنتُم لا بدَّ فاعِلين فأعطُوا الطريقَ حقَّه**". قالوا:

وما حقه؟ قال: "غضُّ البصرِ، وكفُّ الأَذى، وردُّ السَّلامِ"[1].

والنظرُ أصلُ عامَّةِ الحوادِث الَّتي تُصيبُ الإنسانَ، فإنَّ النظرةَ تُولِّد خطرةً، ثُمَّ تولِّد الخطرةُ فكرةً، ثم تولِّد الفكرةُ شهوةً، ثم تولِّد الشهوةُ إرادةً، ثمَّ تقوى فتصير عزِيمةً جازمةً، فيقعُ الفعلُ ولا بد، ما لم يمنَعْ مِنه مانِعٌ، وَفِي هَذَا قِيل: "الصبْرُ على غضِّ البصرِ أيسَرُ مِنَ الصبرِ عَلَى ألم مَا بعدَه".

قَال الشَّاعر:

كُلُّ الحوادثِ مبداها من النَّظرِ ... ومعظمُ النَّارِ من مستَصْغَرِ الشررِ

كم نظرةٍ بلغتْ من قلبِ صَاحِبها ... كمبْلغِ السهْمِ بينَ القوْسِ والوترِ

والعبدُ ما دام ذا طرفٍ يُقَلّبُهُ ... في أعينِ الغيد موقوفٌ على الخطرِ

يسرُّ مقلتَه ما ضرَّ مهجتَهُ ... لا مَرحبًا بسُرورٍ عادَ بالضَّررِ

ومنْ آفاتِ النَّظرِ: أَنَّه يُورث الحسراتِ والزَّفراتِ والحرقاتِ، فيرى العبدُ ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه، وهذا من أعظم العذاب أنْ تَرى ما لَا صبْر لَكَ على بعضِه، ولا قُدرةَ لَكَ على بْعضِه.

* وأمَّا الخطراتُ: فشأنُها أصعبُ؛ فإنَّها مبدأُ الخيْرِ والشرِّ، ومنها تتولَّد الإراداتُ والهممُ والعزائمُ، فمن راعى خطراتِه ملك زمامَ نفسه وقهرَ هَواه، ومن غلبته خطراتُه فهواه ونفسُه له أغلبُ، ومن استهان بالخطراتِ قادَتْه قهرًا إلى الهلكاتِ.

ولا تَزالُ الخطراتُ تتردَّد على القلْبِ حَتَّى تصِير مُنًى باطلةً ﴿كَسَرَابٍ

---

(١) البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم(٢١٢١).

بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] وأخسُّ الناسِ همَّةً، وأوضعُهم نَفْسًا مَنْ رضِي من الحقائقِ بالأمانيِّ الكاذبةِ، واستجْلبهَا لنفسِه، وتحلَّى بها، وهِي لعمرالله رءوسُ أموالِ المفلسينَ، ومتاجر البطَّالين، وهي قوت النفسِ الفارغةِ الَّتي قد قنعتْ من الوصْلِ بزورَةِ الخيَالِ، ومن الحقائق بكواذِب الآمال.

* **وأمَّا اللفظاتُ: فحفظُها بأن لا يخرجَ لفظةً ضائعة،** بأن لا يتكلمَ إلَّا فيما يرجُو فيه الربْحَ والزيادةَ في دينه، فإذا أراد أن يتكلَّم بالكلمةِ نَظَر: هلْ فيها ربحٌ وفائدةٌ أمْ لَا؟ فإن لم يكن فيها ربحٌ أمسكَ عنها، وإنْ كَان فِيها ربحٌ نَظَر: هل تفوتُ بِها كلمةٌ هِي أربحُ منْها؟ فَلا يضيِّعها بهذِه، وإذا أردْتَ أن تستدلَّ على ما في القلْبِ فاستدلَّ عليْهِ بحركةِ اللِّسانِ؛ فإنَّه يُطلِعُكَ على ما في القلبِ، شَاء صاحبُه أمْ أَبى.

قَال يحيىَ بنُ مُعاذٍ: "القلوبُ كالقُدورِ تَغلي بما فيها، وألسنتُها مغارفُها، فانظُرْ إلى الرَّجُلِ حينَ يتكلَّمُ، فإنَّ لسانه يغترف لك مما في قلبِه، حلوٌ وحامضٌ، وعذبٌ وأُجاجٌ، وغيرُ ذِلك، ويبين لك طعم قلبه اغترافُ لسانه" أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدُورِ منَ الطَّعامِ فتدْرك العلمَ بحقيقةِ ذلِك، كَذلك تطعَمُ ما في قلْبِ الرجلِ مِن لسانِه، فتذُوقُ مَا فِي قلبِه مِن لسانِه، كما تذوقُ ما في القِدْر بلسانِكَ.

وسُئِل ﷺ عَنْ أكثرِ ما يُدْخِل النَّاسَ النَّار؟ فقال: **"الفمُ والفرْجُ"**(١).

---

(١) الترمذي: (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

ومنَ العجب أنَّ الإنسانَ يهونُ عليهِ التحفُّظُ والاحترازُ من أكْلِ الحرَام والظلْمِ والزِّنا والسرقة وشرب الخمْرِ، ومن النَّظرِ المحرَّمِ وغيْر ذَلك، ويصعبُ عليه التحفُّظ مِنْ حركَةِ لسانِه، حتَّى تَرى الرجلَ يُشارُ إليْهِ بالدِّين والزهْدِ والعبَادةِ، وهو يتكلَّم بالكلماتِ من سخطِ الله لا يُلقِي لَها بَالًا ينزلُ بالكلمةِ الواحدَةِ منْها أبعدَ ممَّا بيْنَ المشْرقِ والمغرِبِ، وكَم تَرى مِنْ رَجلٍ متورِّعٍ عَن الفواحِش والظُّلْمِ، ولسانُه يفْرِي في أعراضِ الأحْياءِ والأمْواتِ، ولا يُبالِي مَا يقُولُ.

* وفي الصحيحيْن[1] من حديثِ أَبي هريرةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: "إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ من رضوانِ الله لا يلقِي لها بالًا يرفعُه اللهُ بهَا درجاتٍ، وإنَّ العبْدَ ليتكلَّم بالكلِمَةِ مِن سخَطِ الله لا يُلقِي لها بالًا يهْوِي بها في نَارِ جهنَّم".

وفي اللِّسَانِ آفتَانِ عظيمتَانِ، إنْ خلص من إحداهما لم يخلُصْ منَ الأخْرَى: آفة الكلام، وآفةُ السكوتِ، وقدْ يكونُ كُلٌّ منهُما أعظمَ إثمًا مِنَ الأُخْرى في وقتِها؛ فالسَّاكِتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخْرسُ، عاصٍ لله، مُراءٍ مُداهِنٌ إذا لم يخَفْ على نفسِه، والمتكلِّمُ بالباطِل شيطانٌ ناطقٌ عاصٍ لله.

وأكثرُ الخلْقِ منحرفٌ فِي كلامِه وسُكوتِه؛ فهمْ بينَ هذينِ النوْعينِ، وأهلُ الوسَطِ - وهمْ أهلُ الصراطِ المستقِيم - كَفُّوا ألسنتَهمْ عَنِ البَاطِلِ، وأطلقُوها فِيما يعُودُ عليهِمْ نفعُه في الآخِرةِ، فَلا تَرى أحدَهُمْ يتكلَّم بكلِمةٍ تذْهبُ عليْهِ ضائعةً بلا منفعةٍ، فَضلًا أن تضرَّه في آخرَتِه، وإنَّ العبدَ ليأتي يوم

(١) البخاري (٦١١٢)، ومسلم (٢٩٨٨).

القِيامة بحسناتٍ أمثَال الجبالِ، فيجدُ لسانَه قدْ هدمَها عليهِ كُلَّها، ويأتِي بسيئاتٍ أمثالِ الجبالِ فيجدُ لسانَه قدْ هدمَها مِن كثرةِ ذكْرِ الله ومَا اتَّصلَ بِه.

* **وأما الخطُواتِ؛ فحفظُها بأنْ لا ينقِل قدَمَه إلَّا فِيما يرْجُو ثوابَه، فإنْ لم يكنْ في خُطاهُ مزِيدُ ثوابٍ فالقُعودُ عَنْها خيرٌ له**، ويمكنه أن يستخرجَ من كُلِّ مباحٍ يخطُو إليهِ قُربة ينويها لله، فتقعُ خُطاه قربةً.

* * *

فصل

[عُقوباتِ الزِّنا]

وهَذا كلُّه ذكرنَاه مقدمةً بين يدَي تحرِيم الفواحِش ووُجوبِ حِفظ الفرْجِ، وقدْ قالَ رسُول الله ﷺ: **"أكْثر ما يُدْخِل الناسَ النَّار: الفمُ والفرجُ"**[1].

* **وفي الصحيحين**[2] عنْه ﷺ: **"لا يحِلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدَى ثلاثٍ: الثيبِ الزاني، والنفسِ بالنفسِ، والتارِك لدينِه المفارقِ للجماعَةِ"**.

ومفسدَةُ الزنا مناقِضةٌ لصَلاح العَالم.

فكمْ فِي الزنا مِن استحْلال حُرمَاتٍ، وفوَات حُقوقٍ، ووقُوع مظالمَ؟

- **ومِنْ خاصيَّتِه: أنَّه يُوجِبُ الفقْرَ، ويقصِّرُ العمْرَ، ويكْسُو صاحِبَه سوادَ الوجْه، ويُورِثُ المقتَ بين الناسِ.**

---

(١) الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وقد تقدَّم قريبًا.

(٢) البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

- ومن خاصيَّته أيضًا: أنه يشتِّت القلْبَ ويُمرضُه إن لم يمِتْه، ويجلبُ الهمَّ والحزنَ والخوفَ؛ ويُباعد صاحبه من الملك ويقرِّبه من الشيطانِ، فليس بعد مفسدةِ القتلِ أعظمُ من مفسدتِه، ولهذا شُرِّع فيه القتل على أشنَع الوجوهِ وأفحشِها وأصعَبِها، ولَو بلَغ العبدَ أنَّ امرأَته أو حُرمتَه قُتِلَت، كانَ أسهلَ عليْه من أنْ يبلُغَه أنها زَنَت.

* وقال سعدُ بنُ عُبادة ﷺ: "لَو رأيتُ رجلًا مع امرأتي لضربتُه بالسيْف غير مُصَفَّح[1]". فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: "أتعجبُون مِن غيْرةِ سعدٍ؟ والله لأَنَا أغيَرُ مِنه، والله أغيرُ مني، ومن أجلِ غيرةِ الله حرَّم الفواحِش ما ظَهر منْها وما بَطن"[2].

* وفي الصحيحين[3] أيضًا عنه ﷺ: "إنَّ اللهَ يغارُ، وإنَّ المؤمنَ يغارُ، وغيرَة الله أن يأتِي العبدُ ما حُرِّم عليْه".

* وفي الصَّحيحين[4] أيضًا عنْه ﷺ: "لا أحدَ أغيرُ مِن الله، مِن أجلِ ذلك حَرَّم الفواحِش ما ظَهر منْها وما بَطن، ولا أحدَ أحبُّ إليْه العذرُ مِن الله، مِن أجلِ ذلك أرْسَل الرُّسلَ مبشِّرين ومنذِرين، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدْحُ مِن الله، ومنْ أجْلِ ذلك أثنى عَلى نفسِه".

---

(١) مصفح – بضم الميم وفتح الفاء –: يقال: أصفحته بالسيف إذا ضربته بعرضه دون حده. انظر النهاية (٣/ ٣٤).

(٢) البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم(١٤٩٩).

(٣) البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم(٢٧٦١).

(٤) البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم(٢٧٦٠).

وخصَّ سبحانَه حدَّ الزنا من بين الحُدود بثلاثِ خصائص:

- **إِحداها: القتْلُ فيه بأشنَع القتلات،** وحيْثُ خفَّفه جمعَ فِيه بين العقوبةِ على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنِه سنةً.

- **الثَّاني: أَنَّه نَهى عبادَه أن تأخُذَهم بالزُّنَاةِ رأفةٌ في دينِه،** بحيثُ تمنعُهم مِن إقامَة الحدِّ عليْهِمْ؛ فإنَّه سُبحَانَه مِن رأفَتِه ورحمَتِه بهمْ شرع هذه العقوبةَ فهُو أرْحمُ بِكُمْ، ولم تمنعْه رحمتُه مِن أمرِه بهذِه العقوبةِ، فَلا يمنعُكُمْ أنتمْ ما يقومُ بقلُوبكُمْ مِنَ الرأفَةِ مِن إقامَة أمرِه.

- **الثَّالثُ: أَنَّه سبحانه أمرَ أنْ يكُونَ حدُّهما بمشْهدٍ مِن المؤمنينَ،** فلا يكونُ في خلوةٍ بحيثُ لا يراهُما أحدٌ، وذَلك أبلَغُ فِي مصلحةِ الحدِّ وحكمةِ الزجْرِ، وحدُّ الزَّاني المحصَن مشتقٌّ من عقوبة الله تعالى لقومِ لُوطٍ بالقذْفِ بالحجارة، وذلك لاشتراك الزنا واللواط في الفحش، وفي كُلٍّ منهُما فَسادٌ يُناقِض حكمةَ الله في خلْقِه وأمره، فإنَّ في اللواطِ من المفاسِد ما يفوتُ الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعولُ به خيرٌ له من أن يُؤتى، فإنَّه يفسدُ فسادًا لا يُرجى لَه بعده صلاحٌ أبدًا، ويذْهبُ خيرُه كلُّه، وتمصُّ الأرضُ ماءَ الحياءِ من وجْهِه، فلا يستحيِي بعدَ ذَلك مِن الله ولا من خلْقِه، وتعمَلُ في قلبه ورحمه نطفَةُ الفاعِل ما يعمَلُ السمُّ فِي البدَنِ.

* * *

أَسبابُ سُوءِ الخاتِمة

قَال الحافِظ أبو محمَّدٍ عبد الحق بن عبدالرحمن الإشبيليُّ رحِمه الله:

* **واعلمْ أنَّ لسوءِ الخاتمةِ - أعَاذنا اللهُ مِنها - أسبابًا**، ولها طُرقٌ وأبْوابٌ، أعظمُها الانكبابُ على الدنْيا، والإعراضُ عن الآخرةِ، والإقْدامُ والجرْأةُ عَلَى معَاصِي اللهِ عزَّ وجلَّ وربَّما غلبَ على الإنسان ضربٌ من الخطيئةِ ونوعٌ من المعصيةِ وجانِبٌ منَ الإعْرَاضِ ونصيبٌ من الجرْأةِ والإقدامِ، فملكَ قلبَه وسبَى عقله وأطفأ نورَه وأرسلَ عليْه حُجبَهُ، فَلَمْ تنفعْ فِيه تذكِرةٌ ولا نجعتْ فِيه موعظةٌ، فربَّما جاءه الموت على ذلك، فسمعَ النداءَ من مكانٍ بعيدٍ، فلم يتبيَّنِ المرادَ، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الدَّاعي وأعادَ.

قَال: ويُروى أنَّ بعضَ رِجال النَّاصِر نَزَلَ به الموتُ، فجعل ابنُه يقول: قُلْ لا إله إلا الله، فقال: النَّاصِر مَوْلاي، فأعاد عليه القول، فأعاد مثْل ذَلك، ثم أصابتْه غشيَةٌ، فلمَّا أفاقَ قال: الناصر مولاي، وكان هذا دأبه، كلما قيل له: قل: لا إله إلا الله، قال: الناصِرُ مولاي، ثُمَّ قال لابْنِه: يا فُلان، النَّاصِر إنما يعرفُك بسيْفِك، والقتلَ القتلَ، ثُمَّ مات.

- **قال عبدُ الحقِّ**: وقيل لآخر - ممن أعرفُه -: قل: لا إله إلا الله، فجعلَ يقولُ: الدارُ الفلانيَّةُ أصلِحوا فِيها كذا، والبستانُ الفلانيُّ افعلُوا فيه كَذا.

- **وقِيل لآخر**: قُل لا إله إلا اللهُ، فجعَل يقولُ:

أيـــن الطريقُ إلى حمَّام منجــابِ

- ولقدْ بَكى سفيانُ الثوريُّ ليلةً إلى الصَّباحِ، فلمَّا أصبحَ قِيل له: كُلُّ هذا خوفًا من الذنوبِ؟ فأخذَ تبنةً من الأرْضِ، وقال: الذنوبُ أهْونُ مِن هذا، وإنَّما أبْكِي مِن خوْفِ سُوء الخاتمةِ.

وَهَذَا من أعظمِ الفقْه: أنْ يخافَ الرجلُ أنْ تخذلَه ذنوبُه عِند الموْتِ، فتحولُ بينَه وبينَ الخاتمةِ الحسْنَى.

- وقد ذكر الإمامُ أحمدُ عَنْ أبي الدرداءِ (أنَّه لما احتُضِر جعل يُغمى عليهِ ثم يفيق ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فَمنْ هَذَا خَاف السلَفُ من الذُّنوبِ أن تكونَ حِجابًا بينَهمْ وبينَ الخاتمة الحسْنى.

* قَالَ: واعلم أَنَّ سُوءَ الخاتمة – أعاذَنا اللهُ تَعالى منْها – لا تكون لمنْ استقامَ ظاهِرُه وصلُح باطِنه، مَا سمعَ بهذا ولا عُلِم به ولله الحمد، وإنَّما تكونُ لمن له فسادٌ في الأصلِ أو إصرارٌ على الكبائرِ، وإقدامٌ على العظائمِ، فربما غلب ذلك عليه حتَّى ينزلَ به الموتُ قبل التوبةِ، فيأخذه قبْل إصلاح الطويَّة، فيظفرَ بِه الشيطانُ عِند تِلك الصدْمَةِ، ويختطِفَه عندَ تِلك الدهْشَةِ، والعياذُ بالله.

* * *

فصلٌ
[مفسدةُ اللّواط]

ولما كانتْ مفسدةُ اللواطِ منْ أعظمِ المفاسِد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقُوباتِ.

وقد اختلف النَّاسُ: هَل هُو أغلَظُ عقوبةً من الزنَا، أو الزنَا أغلظ عقوبةً مِنه أو عقوبتُهما سواءٌ؟

* فذهبَ أبو بكرٍ الصديقِ وعليُّ بْنُ أبي طالِب إلى أن عقوبته أغلظُ من عُقوبةِ الزنَا، وعقوبتُه القتل على كلِّ حالٍ، مُحصنًا كان أو غير محصنٍ.

* وذهبَ عطاءُ بنُ أبِي رباحٍ، والحسنُ البصريُّ، إلى أن عقوبته وعقوبة الزنا سواءٌ.

* وذهبَ الحاكمُ وأبُو حنيفةَ إلى أنَّ عقوبتَه دُونَ عقوبةِ الزَّاني، وَهِي التعزير.

* * *

فصلٌ
[علاجُ الشهواتِ]

فإن قيل: وهلْ مع هذا كلّه دواءٌ لهذا الدَّاءِ العضال؟ ورقية لهذا السحرِ القتال؟ وما الاحتيال لدفْعِ هذا الخبال؟

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء،

والداء الذي طُلِبَ له الدواءُ.

قِيلَ: نعمْ، الجوابُ من أصْلِ "**ما أنزلَ اللهُ مِن دَاءٍ إلَّا أنزلَ لَهُ دواءً عَلِمَهُ من عَلِمَهُ وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**"(١).

والكلامُ في دواءِ هَذا الدَّاءِ من طريقَيْنِ:

* **أحدُهما**: حَسْمُ مادَّتِه قَبْل حصولِها.

* **والثَّاني**: قلعُها بعْدَ نزولِه، وكلاهُما يسيرٌ عَلى من يَسَّره اللهُ عليْهِ، ومتعذِّرٌ عَلى منْ لم يُعِنْه اللهُ، فإنَّ أَزِمَّةَ الأمُورِ بيديْهِ.

فأمَّا الطريقُ المانعُ من حُصولِ هَذا الدَّاءِ، فأمرَانِ:

* **أحدُهما: غَضُّ البصَرِ كمَا تقدَّم**؛ فإنَّ النظرةَ سهمٌ مسمومٌ من سهامِ إبليسَ، ومن أطلق لحظاتِه دامت حسراتُه، وفي غضِّ البصرِ عدَّة منَافعَ:

- **أحدُها: أنَّه امتثَالٌ لأمْرِ اللهِ الَّذي هُو غايةُ سعادَةِ العبْدِ في معَاشِه ومعادِه**؛ فليْسَ للعبْدِ فِي دنياهُ وآخرَته أنفعُ من امتثالِ أوامرِ ربِّه تَبارَكَ وتعالى، وما سعِد مَنْ سعِد في الدنْيا والآخرةِ إلا بامتثالِ أوامرِه، وما شَقِيَ من شقِيَ في الدنيا والآخرة إلا بتضْييعِ أوامرِهِ.

- **الثانيةُ: أنَّه يمنَعُ مِن وُصولِ أثَر السهْمِ المسمُومِ – الَّذي لعلَّ فِيه هلاكَه – إلى قلْبِه.**

- **الثالثةُ: أنَّه يُورثُ القلبَ أُنْسًا باللهِ وجمعه عليْهِ**؛ فإنَّ إطلاقَ البصرِ يفرِّقُ

---

(١) المسند (٤/ ٢٧٨).

القلبَ ويشتته، ويبعِدُه عن الله، وليسَ على القلْبِ شيءٌ أضرُّ مِن إطلاقِ البصَر؛ فإنَّه يوقِعُ الوحْشةَ بينَ العبْدِ وبينَ ربِّه.

- **الرابعةُ: أنَّه يقوِّي القلبَ ويفرِحُه**، كَما أن إطلاقَ البصرِ يضعفُه ويحزنُه.

- **الخامسَةُ: أنَّه يُكسبُ القلْبَ نُورًا**، كما أنَّ إطلاقَه يُكسبُه ظُلمةً، ولهذَا ذَكر اللهُ سبحانَه آيةَ النُّورِ عُقيبَ الأمرِ بغضِّ البصَر، فقالَ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠].

ثُمَّ قالَ إثْرَ ذلكَ: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: ٣٥] أيْ: مثلُ نورِه في قلْبِ عبدِه المؤمِن الَّذي امتثلَ أوامرَه واجتنَب نواهيَه.

- **السادسَةُ: أنَّه يُورثُ فراسةً صادقةً يميز بهَا بين الحقِّ والباطلِ، والصادقِ والكاذبِ**، وكانَ شجاعٌ الكرمانيُّ يقولُ: مَن عَمَّر ظاهرهُ باتِّباعِ السنَّة وباطنَهُ بدوام المراقَبة، وغضَّ بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهواتِ، واغتذَى بالحلالِ، لم تخطِئْ له فراسةٌ.

- **السابعةُ: أنَّه يُورثُ القلبَ ثباتًا وشجاعةً وقوةً**، فجمعَ اللهُ لَه بين سُلطانِ البصيرةِ والحجَّةِ وسُلطانِ القدْرة والقوَّةِ.

- **الثامنةُ: أنَّه يسدُّ على الشيطانِ مدخله إلى القلبْ**؛ فإنه يدخل مع النظرةِ وينفُذ معها إلى القلب أسرعَ من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثِّل لَه صورةَ المنظُورِ إليه ويزيِّنُها، ويجعلُها صنمًا يعكُف عليْه القلب ثُمَّ يَعِدُه ويُمنِّيه ويُوقِد على القلْب نارَ الشهْوةِ، ويُلقي عليْه حَطب المعاصِي الَّتِي لم

يكنْ يتوصَّل إليْها بدُون تلك الصُّورةِ، فيصيرُ القلْبُ في اللَّهيبِ.

- **التاسعةُ: أنَّه يُفرِغُ القلبَ للفكْرةِ في مصَالِحه والاشْتِغالِ بِها**، وإطْلاقِ البصَرِ يُنسِيه ذَلكَ ويحُولُ بينَه وبينَه، فينفَرِطُ عليه أمرُه، ويقعُ في اتِّباعِ هَواهُ وفِي الغفلةِ عن ذكرِ ربِّه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] وإطلاق النظر يُوجبُ هذهِ الأمور الثلاثة بحسْبه.

- **العاشِرةُ: أنَّ بين العينِ والقلْبِ منفذًا وطريقًا يُوجب انفعالَ أحدِهما عَنِ الآخَرِ**، وأنْ يصلُحَ بصلاحِه، ويفسَدَ بفسَادِه، فَإذا فَسد القلْبُ فَسد النَّظرُ، وإذا فسَد النظرُ فسَد القلْبُ، وَكذلك في جانبِ الصَّلاحِ؛ فإذا خَربتِ العينُ وفسَدتْ خرب القلبُ وفسدَ وصارَ كالمزْبلَةِ الَّتي هِي محلُّ النجاساتِ والقاذوراتِ والأوساخِ، فلا يصلُح لسُكْنى معرِفةِ الله ومحبَّتِه والإنابةِ إليْهِ، والأُنْسِ بِه والسُّرورِ بقرْبه فِيه، وإنَّما يسكُن فِيه أضدادُ ذَلك.

فهذِه إشارةٌ إلى بعضِ فوائدِ غضِّ البَصرِ تُطلِعُك عَلَى ما ورَاءَها.

* **الطريقُ الثَّاني المانعُ من حُصول تعلُّقِ القلْبِ**: اشتغالُ القلْبِ بما يُبعِدُه عن ذلِك، ويحُول بينَه وبينَ الوقُوع فِيه، وَهُوَ إمَّا خوفٌ مقْلِقٌ أو حبٌّ مزعِجٌ، فَمَتى خَلا القلْبُ مِن خوفِ ما فَوَاتُه أضرُّ عليْه مِن حُصول هَذا المحبُوبِ، أَوْ خوْفِ ما حصولُه أضرُّ عليْه من فوات هذا المحبوبِ، أو محبتِه ما هو أنفعُ له وخير له من هذا المحبوب، وفواتُه أضرُّ عليه من فواتِ هذا المحبوبِ، لم يجد بدًّا من عشقِ الصُّورِ.

وشرحُ هَذا: أنَّ النفْسَ لا تتْركُ محبوبًا إلا لمحبوبٍ أَعلى منْه أو خشيةِ مكْروهٍ حُصولُه أضرُّ عليْها مِن فَوات هَذا المحبُوب، وهذا يحتاجُ صاحِبُه إلى أمرَيْنِ إن فقدَهما أو أحدهما لم ينتفعْ بنفسِه:

- **أحدُهما: بصيرةٌ صحيحةٌ، يفرِّقُ بها بينَ درجاتِ المحبوبِ والمكروه، فيُؤثِرُ** أعلى المحبُوبَيْنِ عَلى أدْناهما، ويحْتمِلُ أَدْنى المكْروهَيْن ليخلُص مِنْ أَعْلاهما وهذا خَاصَّةُ الْعقل، ولا يُعدُّ عَاقلًا مَنْ كان بضدٍّ ذَلك؛ بلْ قَدْ تكونُ البهائمُ أحسنَ حَالًا منْه.
- **الثَّانِي: قوةُ عزمٍ وصبرٍ، يتمكَّن بِه من هذا الفعْلِ والتَّركِ**، فكَثيرًا ما يعرِفُ الرجلُ قدْرَ التفاوتِ، ولكنْ يَأبى لَه ضعفُ نفْسِه وهمَّتِه وعزيمتِه على إيثارِ الأنفعِ من خِسَّتِه وحرْصِه ووضاعةِ نفْسِه وخسَّةِ همَّتِه.

ومثلُ هَذا لا ينتفع بنفسِه، ولا ينتفع به غيرُه، وقد منع الله سبحانَه إمامةَ الدِّينِ إلا أهلَ البصَرِ واليقينِ، فقال تعالى – وبقولِه يهْتدِي المهتدُون منهم –: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، وَهذا هُو الَّذِي ينتفِعُ بعلْمِه وينتفِعُ بِه الناسُ، وضدُّه لا ينتفِعُ بعلْمِه، ولا ينتفعُ بِه غيرُه، ومِنَ النَّاسِ مَنْ ينتفعُ بعلْمِه فِي نفسِه ولا ينتفِعُ به غيرُه، فالأوَّلُ يمشِي في نورِه ويمشِي الناسُ في نورِه، والثَّاني قَد طُفئ نورُه، فَهُو يمشِي في الظُّلماتِ ومَنْ تَبعَه في ظلمتِه، والثالثُ يمشِي في نورِه وحدَه.

* * *

فصل
[الشركُ في المحبَّةِ]

إِذا عرفْتَ هَذه المقدمة فلا يمكِنُ أن يجتمِعَ في القلْبِ حبُّ المحبوبِ الأعْلى وعشقُ الصُّورِ أبدًا؛ بَل هُما ضدَّانِ لا يتلاقَيان، بَل لا بُدَّ أن يُخرِج أحدُهما صاحبَه، فمَنْ كَانت قوةُ حبِّه كلُّها للمحبوب الأعلى الذي محبة ما سِواه باطلةٌ وعَذابٌ عَلَى صاحبِهَا؛ صرَفَه ذلك عن محبَّةِ ما سواهُ، وإن أحبَّه لم يحبَّه إلَّا لأجْلِه، أو لكوْنِه وسيلةً إلى محبَّتِه، أو قاطعًا له عما يضادُّ محبته ويُنقِصُها، والمحبةُ الصادقةُ تقتضِي توحيدَ المحبوبِ، وأنْ لا يشرِكَ بينَه وبين غيرِه في محبَّتِه.

واللهُ سبحانَه خلق الخلقَ لعبادتِه وحدَه لا شريكَ لَهُ، التي هي أكمل أنواع المحبَّة مع أكمل أنواع الخضوعِ والذُّلِّ، وهَذَا هُو حقيقةُ الإسْلامِ وملَّةُ إبراهيمَ الَّتِي مَنْ رَغِبَ عَنْهَا فقدْ سفِه نفسَه، قال تعالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٣].

ولهذا كانَ أعظَمَ الذنُوبِ عِنْد الله الشركُ.

* **وأصلُ الشركِ باللهِ**: الإشراكُ في المحبَّةِ، كَما قَال تعالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن

يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والمقصودُ: أنَّ حقيقة العبوديَّةِ لا تحصلُ مع الإشراك بالله في المحبَّةِ، بخلافِ المحبة لله، فإنَّها من لوازمِ العبوديَّةِ وموجباتِها؛ فإنَّ محبَّة الرسول - بل تقديمه في الحبِّ على الأنفس والآباء والأبناء - لا يتمُّ الإيمانُ إلَّا بِها، إذْ محبتُه من محبة الله، وكذلك كُلُّ حب في الله ولله.

* وفي الحديثِ الَّذِي في السُّنَنِ(١): "**مَنْ أحبَّ لله وأبغض لله وأعطى لله ومَنع لله؛ فقد استكْمَل الإيمانَ**".

فإنَّ هذه المحبَّةَ مِن لوازِم محبَّةِ اللهِ ومُوجِباتِها، وكلَّما كانتْ أقْوى، كَان أصلُها كذلك.

* * *

فصلٌ
[أنواعُ المحبَّة]

وها هُنا أربعةُ أنواعٍ من المحبةِ، يجب التفريقُ بينَها، وإنَّما ضلَّ مَن ضلَّ بعدَم التمْيِيزِ بينَها:

* **أحدُها**: **محبَّةُ الله**، ولا تكْفِي وحدَها في النَّجاةِ مِنْ عذابِ الله.

* **الثَّانِي**: **محبَّةُ ما يحِبُّ اللهُ** وهذه هِي الَّتي تُدْخِلُه فِي الإسْلَامِ وتُخْرِجُه

---

(١) أبو داود (٤٦٨١)، والترمذي (٢٥٢١)، وأحمد (٣/ ٤٣٨، ٤٤٠).

من الكفرِ.

* **الثالث: الحبُّ لله وفيه**، وهي من لوازم محبَّة ما يحبُّ.

* **الرابع: المحبَّةُ معَ الله**، وهِي المحبةُ الشرْكِيَّة.

وبَقِي قسمٌ خامِسٌ ليْس مِمَّا نحنُ فيه، وهو المحبَّةُ الطبيعيَّةُ، وهي ميلُ الإنْسانِ إلى ما يُلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطَّعامِ، ومحبةِ النومِ والزوجةِ والولدِ، فتلك لا تُذَمُّ إلا إذا ألهت عن ذكر الله، وشغلتْ عن محبَّتِه.

ثُمَّ الخُلَّةُ: وهِي تتضمَّنُ كمالَ المحبَّةِ ونهايتها، بحيث لا يبقَى فِي قلْبِ المحبِّ سِعةٌ لغيْرِ محبوبِه، كما قال ﷺ: "**إِنَّ اللهَ اتَّخذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخذَ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا**"(١).

* * *

فصل
[أقسامُ المحبُوبِ]

* والمحبوبُ قسمانِ: محبوبٌ لنفسِه، ومحبوبٌ لغيرِه، والمحبوب لغيرِه لا بدَّ أن ينتهِيَ إلى المحبُوبِ لنفسِه، دفعًا للتسلْسُلِ المحَالِ، وكُلّ مَا سِوى المحبوبِ الحقِّ فهو محبوبٌ لغيْرِه، وليْس شيءٌ يُحبُّ لنفسِه إِلَّا اللهُ وحدَه، وكُلُّ مَا سواهُ مما يحبُّ فإنَّما محبَّته تبعٌ لمحبة الربِّ تبارك وتعالى كمحبَّةِ ملائكتِه وأنبيائِه وأوليائِه، فإنَّها تبعٌ لمحبَّتِه سبحانَه، وهي من لوازِم محبَّتِه،

---

(١) مسلم (٥٣٢).

فإنَّ محبةَ المحبوبِ تُوجبُ محبَّةَ ما يحبُّه، وهذا موضِعٌ يجبُ الاعتناءُ بِه.

والمحبوبُ لغيرِه قسمانِ أيضًا:

- **أحدُهما:** ما يلتذُّ المحب بإدراكه وحصولِه.
- **والثَّانِي:** ما يتألَّمْ بِه ولكنْ يحتمِلُه لإفْضائِه إلى محبُوبه كشُرْبِ الدَّواءِ الكريه، قال تعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فأخبَر سبحانَه أنَّ القِتالَ مكروهٌ لهمْ مع أنَّه خيرٌ لهمْ؛ لإفضَائِه إلى أعظم محبُوبٍ وأنفعِه.

فالأمورُ أربعةٌ:

- مكروهٌ يُوصلُ إلى مكروهٍ.
- ومكروهٌ يُوصلُ إلى محبوبٍ.
- ومحبوبٌ يوصل إلى محبوبٍ.
- ومحبوبٌ يوصل إلى مكروهٍ.

فالمحبوبُ الموصل إلى محبُوبٍ قدِ اجْتمعَ فِيه دَاعي الفعلِ مِن وجْهَيْنِ، والمكروهُ الموصلُ إلى مكروهٍ قَدِ اجْتمعَ فِيه دَاعي التَرْكِ من وجْهَيْن:

بَقِي القسمانِ الآخرانِ يتجاذبُهما الداعيانِ - وهما معترك الابتلاءِ والامتحانِ - فالنفسُ تُؤثِرُ أقربَهما جِوارًا منْها، وهُو العاجِلُ، والعقْلُ والإيمانُ يؤثِرُ أنفعَهُما وأبقَاهما، والقلْبُ بَين الداعيَيْنِ، وَهُوَ إلى هَذا مرَّةً، وَإلَى هَذا مرَّةً، وهَا هُنا محلُّ الابتْلاءِ شَرعًا وقَدَرًا.

فصل

[حبُّ اللهِ ورسوله أصلُ الأعمالِ الدينيَّةِ]

وَإِذَا كَان الحبُّ أصلَ كلِّ عملٍ من حقٍّ وباطلٍ، فأصلُ الأعمالِ الدينيةِ حبُّ اللهِ ورسولِه ﷺ، كَما أَنَّ أصلَ الأقْوالِ الدينيَّةِ تصديقُ اللهِ ورسولِه ﷺ.

وَلا شيء على الإطلاقِ أنفعُ للعبد من إقبالِه على الله واشتغالِه بذكرِه وتنعُّمِه بحبِّه وإيثارِه لمرضاتِه.

مِن كلِّ شيءٍ إذا ضيعتَه عِوَضٌ ... وما مِنَ اللهِ إنْ ضَيَّعْتَهُ عِوضُ

ولما كانتِ المحبةُ جنسًا تحتَه أنواعٌ متفاوتةٌ فِي القدْرِ والوصْفِ، كَانَ أغلَبُ ما يُذْكَرُ فيها في حقِّ الله تَعَالَى ما يختصُّ بِهِ ويلِيقُ بِهِ من أنواعِها.

* **وأعظمُ أنْواعِ المحبَّةِ المذمُومةِ**: المحبَّةُ مَعَ اللهِ الَّتي يُسوِّي المحبُّ فِيها بينَ محبَّتِه لله ومحبَّتِه للندِّ الَّذي اتخذَه مِن دُونِه.
* **وأعظمُ أنْواعِها المحمودةِ**: محبَّةُ الله وحدَه ومحبَّةُ مَا أحبَّ، وهذِه المحبة هي أصلُ السَّعَادة، ورأسُها الَّتي لا ينجُو أحدٌ من العذابِ إلَّا بِها، والمحبَّةُ المذمومةُ الشرْكيَّةُ هي أصلُ الشَّقاوةِ ورأسُها الَّتي لا يبْقَى فِي العذَابِ إلا أهلُها،فأهلُ المحبَّةِ الَّذين أحبُّوا اللهَ وعبدُوه وحدَه لَا شَريكَ لهُ لا يدْخُلون النَّارَ، ومَنْ دخلَها بذنُوبِه فإنَّه لا يبْقَى فيها منهُم أحدٌ.

وأصلُ دعوةِ جميعِ الرسُلِ عليهمُ السَّلامُ منْ أولهمْ إلى آخرِهم إنَّما هِي

عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ لَهُ؛ المتضمِّنةُ لكمالِ حُبِّه، وكمالِ الخضوعِ والذلِّ له والإجْلالِ والتعظيمِ، ولوازِم ذَلك مِنَ الطَّاعةِ والتَّقْوَى.

* وقد جَاء في الصحيحَيْن[1] من حديثِ أنسٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **"والَّذِي نفسِي بيدِه لا يؤمِنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليْهِ من ولدِه ووالدِه والنَّاسِ أجمعِين"**.

* وَفي صَحيح البخارِيِّ[2] أَنَّ عُمرَ بْنَ الخطَّابِ ﷺ قَال: يَا رسُولَ الله، والله لأنْتَ أحبُّ إليَّ مِن كلِّ شيءٍ إلَّا منْ نفسِي، فَقَالَ: **"لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أكونَ أحبَّ إليْكَ مِنْ نَفْسِكَ"**. قَال: والَّذِي بعثَكَ بالحقِّ لأنْتَ أحبُّ إليَّ مِنْ نفسِي، قال: **"الآنَ يا عُمَرُ"**.

* * *

فصل
[الفرقُ بينَ المحبَّةِ المحمُودةِ والمحبَّةِ الضارَّةِ]

والمحبةُ لها آثارٌ وتوابعُ ولوازِمُ وأحكامٌ، سواءً كانتْ محمودةً أو مذمومةً، نافعةً أو ضارَّةً.

* **والمحبةُ المحمودَةُ هي المحبَّةُ النافعةُ الَّتِي تجلِبُ لصاحبِها ما ينفعُه في دُنياهُ وآخرَتِه**، وهذهِ المحبَّةُ هِي عُنوانُ سعادَتِه، والضارَّةُ هِي الَّتِي تجلِبُ

(١) البخاري (١٥)، ومسلم(٤٤).

(٢) البخاري (٦٦٣٢).

لصاحِبِها ما يضرُّه في دنياه وآخرتِه، وهِي عُنوان شقاوتِه.

* **والمحبةُ الضارَّةُ المذمُومةُ توابعُها وآثارُها كُلُّها ضارَّةٌ لصاحِبِها مُبْعِدَةٌ لَه مِن رَبِّه، كيفما تقلَّبَ في آثارِها ونزلَ فِي منازِلها فَهُو فِي خَسارةٍ وبُعْدٍ.**

وَكَمَا أنَّ المحبَّة والإرادةَ أصْلُ كُلِّ فعلٍ كما تقدَّم؛ فهي أصل كلِّ دينٍ سَواء أَكانَ حَقًّا أو بَاطلًا، فإنَّ الدِّينَ هُو مِنَ الأعْمالِ الباطنَةِ والظاهرةِ، والمحبةُ والإرادةُ أصلُ ذلك كله، والدينُ هو الطاعةُ والعبادةُ والخُلُقُ، فهو الطَّاعةُ اللَّازِمةُ الدَّائِمةُ الَّتي صَارتْ خُلقًا وعادةً، ولهذا فُسِّر الخُلقُ بالدِّينِ فِي قولِه تَعالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قَال الإمَامُ أحمَدُ عنِ ابْنِ عُيينَةَ قَالَ ابْنُ عبَّاسٍ: "لَعلَى دِينٍ عَظِيمٍ".

* * *

فصل
[ضَرَرُ عشقِ الصُّورِ]

ونختِمُ الجوابَ بفصْلٍ متعلِّقٍ بعشْقِ الصُّورِ ومَا فِيه مِنَ المفاسِدِ العاجِلَةِ والآجِلَةِ، وإنْ كانتْ أضعافَ مَا يذكُره ذَاكِرٌ؛ فإنَّه يفسِدُ القلْبَ بالذَّاتِ، وإذَا فسدَ القَلْبُ فسدَتِ الإرَاداتُ والأقْوالُ والأعْمالُ، وفسدَ ثَغْرُ التوحيدِ كَمَا تقدَّمَ.

واللهُ سبحانَه وتَعالى إنَّما حكَى هَذا المَرَضَ عنْ طائفَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ وهُمُ

اللوطيَّةُ والنِّساءُ، فأخبر عن عشقِ امرأةِ العزيزِ ليوسُفَ وما راودتْه وكادتْه به، وأخبر عن الحال الَّتِي صار إليْها يوسفُ بصبْرِه وعفَّتِه وتقْواه، مَع أنَّ الَّذِي ابْتُلي بِه أمرٌ لا يصْبِرُ عليْه إِلَّا مَن صبَّره اللهُ، فإنَّ مواقعة الفعلِ بحسبِ قوَّةِ الدَّاعِي وزَوَالِ المانِع، وكأنَّ الدَّاعي هاهنا في غاية القوةِ، وذلك مِنْ وُجوهٍ:

* أحدُها: ما ركَّبه الله سبحانه في طبْعِ الرَّجُلِ من مَيْلِه إلى المرأة، كما يميلُ العطْشَانُ إلى الماءِ.

* الثَّاني: أنَّ يُوسُفَ عليهِ السلام كان شابًا، وشهوةُ الشَّابِّ وحِدَّته أقْوى.

* الثالثُ: أنَّه كان عَزَبًا ليْس لَه زوجةٌ ولا سريَّةٌ تكْسِر ثَوْرَة الشهْوَةِ.

* الرَّابعُ: أنَّه كانَ في بِلاد غرْبَةٍ.

* الخامِسُ: أنَّ المرأةَ كانَت ذَاتَ منْصِبٍ وجمالٍ.

* السَّادس: أنَّها غير ممتنعةٍ ولا أبيَّةٍ.

* السَّابع: أنَّها طَلَبَتْ وأرادتْ وراودتْ وبذلتِ الجهدَ؛ فكفتْه مؤنةَ الطلبِ.

* الثَّامن: أنَّه في دارِها وتحتَ سلْطانِها وقهْرِها.

* التاسع: أنَّه لا يَخشى أن تَنِمَّ عليْه هي ولا أحدٌ من جهتِها؛ فإنَّها هي الطالِبةُ الرَّاغبةُ.

* العاشر: أنَّه كان في الظَّاهِر مملوكًا لها في الدَّارِ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكَر عليه.

* الحادي عَشَر: أنَّها استعانتْ عليه بأئمَّةِ المكْرِ والاحْتِيالِ، فأرته إياهنَّ، وشكتْ حالها إليهنَّ لتستعين بهنَّ عليْه.

* الثَّاني عشرَ: أنَّها توعَّدتْه بالسجْنِ والصَّغار، وهذا نوع إكراهٍ.

* **الثَّالثَ عشرَ: أنَّ الزوجَ لم يظهر من الغيرةِ والنخْوةِ ما يفرِّقُ به بينَهما.**

والطائِفةُ الثانيةُ الَّذين حَكى اللهُ عنهُمُ العشْقَ: هُم اللوطيَّةُ.

وهذَا داءٌ أعْيا الأطبَّاءَ دوَاؤه، وعزَّ عليهم شِفاؤه، وهو لعمر الله الدَّاءُ العضالُ، والسُّم القتَّالُ، الَّذي ما علِق بقلْبٍ إلَّا وعزَّ عَلَى الْوَرَى استنقَاذُه من إسارِه، ولا اشتعلَتْ نارُه فِي مهْجَةٍ إلَّا وصعُبَ على الخلقِ تخليصُها من نَارِه.

* * *

فصل
[دَواء عشقِ الصُّور]

ودواءُ هذا الدَّاء القتَّال: أن يعرِفَ أنَّ ما ابتُلِي به مِنْ هذا الدَّاءِ المضادِّ للتوحِيد؛ إنَّما هُو من جهْلِه وغفْلَةِ قلْبِه عن الله.

فعليْه أنْ يعرِف توحيد ربِّه وسننَه وآياتِه أوَّلًا.

ثُمَّ يأتِي من العباداتِ الظاهرةِ والباطنةِ بِمَا يشغلُ قلْبَه عن دوام الْفكْرةِ فِيه، ويكْثِر الَّلجْأَ والتضرُّعَ إلى اللهِ سبْحانَه فِي صرْفِ ذَلك عَنْه؛ وأنْ يُراجِع بقلْبِه إليه.

ولَيْسَ له دواءٌ أنفعُ مِنَ الإخْلَاصِ لله.

ومِن المعْلُومِ أنَّه ليسَ في عشقِ الصُّورِ مصلحةٌ دينيةٌ ولا دنيويةٌ؛ بل مفسدَتُه الدينيةُ والدنيويةُ أضْعافُ أضعافِ مَا يُقدَّرُ فِيه مِن المصلَحةِ وذلِك مِنْ وُجوه:

* أحدُها: الاشتِغالُ بحبِّ المخلُوقِ وذكْرِه عَنْ حبِّ الربِّ تَعَالى وذكرِه؛ فلا يجتمِعُ في القلْبِ هَذا وهَذا إِلَّا ويقْهَر أحدُهما الآخَرَ، ويكُون السلطانُ والغلبةُ لَهُ.

* الثاني: عذابُ قلْبِه بمعشُوقِه؛ فإنَّ من أحبَّ شيئًا غيْرَ الله عُذِّب بِه ولا بدّ.

* الثَّالثُ: أنَّ العاشقَ قلبُه أسيرٌ في قبضة غيره يسومُه الهوانَ.

* الرَّابعُ: أنَّه يشتغلُ به عن مصالح دينه ودُنياهُ.

* الخامسُ: أنَّ آفاتِ الدنْيا والآخرةِ أسرعُ إلى عُشاق الصُّورِ من النَّارِ في يابِس الحطَبِ.

* السادسُ: أنَّه إذا تمكَّنَ من القلبِ واستحْكَم وقَوِي سلْطانُه، أفسد الذِّهنَ وأحْدثَ الوسواسَ، وربما ألحق صاحبهُ بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها.

* السابع: أنَّه ربَّما أفسَد الحواسَّ أو بعضَها، إما إفسادًا معنويًّا أو صوريًّا.

* الثامن: أنَّ العشقَ كَما تقدَّم هُو الإفْراطُ في المحبَّةِ، بحيث يستولي المعشوقُ على قلب العاشِق، حتى لا يخلو من تخيُّلِه وذكرِه والفكرِ فيه، بحيث لا يغيبُ عن خاطِره وذهنِه، فعند ذلك تشتغلُ النفسُ عن استخدامِ القُوى الحيوانيَّة والنفسانيَّة فتتعطلُ تلك القُوى، فيحدث بتعطيلها من الآفاتِ على البدن والروحِ ما يعزُّ دواؤُه ويتعذَّرُ؛ فتتغيرُ أفعالُه وصفاتُه ومقاصِدُه، ويختلُّ جميعُ ذَلك، فيعجزُ البشَرُ عن صلاحِه.

والعشْقُ مبادِئُه سهلةٌ حُلوةٌ، وأوسَطُه همٌّ وشغلُ قلْبٍ وسقمٌ، وآخِرُه

عطَبٌ وقتلٌ؛ إنْ لم تتدارَكْه عِنايةٌ من الله.

*** والعاشِق لهُ ثلاثةُ مقَامات:** مقامُ ابتداءٍ، ومقَام توسّطٍ، ومقامُ انتهاءٍ.

فأمَّا مقامُ ابتدائِه، قَالوا: يجِبُ عليْهِ فِيه مُدافعَتُه بكلِّ ما يقدِرُ عليْهِ إذا كَانَ الوُصولُ إلى معشُوقِه متعذِّرًا قَدَرًا وشرْعًا.

فإنْ عَجزَ عن ذلك وأبى قلبُه إلا السفَرَ إلى محبُوبِه - وهذَا مقامُ التوسُّط والانتِهاءِ - فعليْه كتمانُ ذلك، وأن لا يفشيه إلى الخلق، ولا يشبِّبُ بمحبُوبه ويهتكِه بين النَّاسِ، فيجمعُ بينَ الشرْكِ والظلمِ؛ فإنَّ الظلمَ فِي هَذا البابِ من أعظَمِ أنْواعِ الظلْمِ، وربَّما كان أعظم ضررًا على المعشوق وأهلِه من ظلْمِه فِي مَالِه، فإنَّه يعرِّضُ المعشوقَ بهتْكِه في عشْقِه إلى وُقوعِ النَّاسِ فِيه وانقِسامِهمْ إلى مُصدِّقٍ ومكذِّبٍ، وأكثرُ النَّاسِ يُصدِّقُ فِي هَذا البابِ بأدْنَى شُبْهَةٍ، وَإِذَا قِيل: فَلانٌ فَعلَ بفلانٍ أو بفلانةٍ؛ كَذَّبَه واحدٌ وصَدَّقَه تسعمائة وتسعةٌ وتسعونَ.

فكمْ للعشْقِ من قَتيلٍ من الجانبَيْنِ، وكمْ قَد أزالَ مِن نعمَةٍ، وأفْقَر مِنْ غِنًى، وأسْقطَ مِن مرْتبَةٍ، وشتَّتَ مِنْ شمْلٍ، وكمْ أفسَدَ مِنْ أهْلٍ للرَّجلِ وولدِه، فإنَّ المرْأةَ إِذا رأتْ بعلَها عاشِقًا لغيرِها اتخذَتْ هِي معشُوقًا لنفسِها، فيصيرُ الرَّجلُ متردِّدًا بينَ خَرابِ بيتِه بالطَّلاقِ وبينَ القِيادَةِ[1]؛ فمنَ النَّاسِ مَنْ يُؤثرُ هذا، ومنْهم مَنْ يُؤثرُ هَذا، **فَعلَى العاقل أن لا يحكمَ على نفسِه عشقَ الصُّورِ لئلَّا يؤده ذلك إلى هذه المفاسِد أو أكثرِها أو بعضِها**، فمن فعل ذلك فهو المفرِّطُ بنفسِه المغرورُ بها، فإذا هلكَتْ فَهُو الَّذِي أهلَكَها.

---

(١) هي الدِّياثة.

فصل

[أسبابُ كمالِ اللذَّةِ والفرح والسُّرور]

وهاهُنا أمرٌ عظيمٌ يجبُ على اللَّبيبِ الاعتناءُ به، وهوَ أن كمالَ اللذةِ والفرحِ والسُّرور ونعيمِ القلْبِ وابتهَاج الرُّوحِ تَابعٌ لأمرَيْنِ:

* أحدُهما: كمالُ المحبوبِ في نفسِه وجمالِه، وأنَّه أوْلى بإيثارِ المحبَّةِ مِنْ كُلِّ مَا سِواهُ.

* والأمرُ الثَّاني: كمالُ محبَّتِه، واستفراغُ الوسْعِ فِي حُبِّه، وإيثارُ قرْبِه والوصولِ إليْه بكلِّ شيءٍ.

وإذَا عُرف هَذا، فاللذةُ والسُّرورُ والفرَحُ أَمرٌ مطْلوبٌ في نفسِه، بَل هُو مقصودُ كلِّ حيٍّ وعاقلٍ، وإذَا كانتِ اللَّذَّةُ مطلوبةً لنفسِها فهي تُذمُّ إذا أعقبتْ ألـمًا أعظمَ منْها، أو منعتْ لذَّةً خيرًا منْها وأجلَّ، فكيف إذا أعقبتْ أعظمَ الحسراتِ، وفوَّتَتْ أعظمَ اللذَّاتِ والمسرَّاتِ؟

واللهُ سبحانَه خلقَ الخلْقَ لينيلهمْ هذه اللذَّةَ الدائِمةَ في دَارِ الخلْدِ.

إِذَا عُرِف هَذا، فأعظمُ نعيمِ الآخرَةِ ولذَّاتِها: هُو النظرُ إلى وجْهِ الربِّ جَلَّ جلالُه وسماعُ كلامِه منْه، والقرْبُ منْه، كَمَا ثبتَ في الصَّحيحِ[1] في حَديث الرؤْيةِ: "**فَوَاللهِ مَا أعطَاهُمْ شيئًا أحبَّ إليهمْ مِنَ النَّظرِ إليْهِ**".

وَإذَا عُرف هَذا، فأعظمُ الأسْبابِ الَّتي تُحصِّل هذه اللذَّةَ هُو أعظمُ لذَّاتِ الدنيا عَلى الإطْلاقِ، وهُو لذَّةُ معرَفةِ اللهِ سُبحانَه وتَعالى ولذَّةُ محبَّتِه.

(١) مسلم (١٨١).

* والمقصودُ: أَنَّ أعظمَ لذَّاتِ الدنْيا هُوَ السببُ الموصلُ إِلى أعظَمِ لذَّةٍ فِي الآخرَةِ، ولذَّاتُ الدُّنْيَا ثلاثةُ أنْواعٍ:

فأعظمُها وأكملُها: مَا أوصَلَ إِلى لذَّةِ الآخرَةِ.

* النوعُ الثَّانِي: لذَّةٌ تمنَعُ لذَّةَ الآخرَةِ وتعقبُ آلامًا أعظم منْها.

كَلَذَّةِ الَّذينَ اتَّخذُوا مِن دُون اللهِ أَوثانًا مَودَّةَ بينِهِمْ فِي الحياةِ الدُّنْيَا، يُحبونَهم كحبِّ الله.

* النوعُ الثالثُ: لَذَّةٌ لَا تعقب لذةً فِي دَارِ القرَارِ وَلا ألـمًا، ولا تمنَعُ أَصْلَ لذَّةِ دارِ القرارِ، وإنْ منعَتْ كَمالَها.

فَما أَعَانَ عَلَى اللَّذَّةِ المطلوبةِ لذاتها فهو حقٌّ، وما لم يَعِنْ عليْها فَهُوَ باطِلٌ.

* * *

فصل
[محبَّة الزوجة]

* **وأمَّا محبَّةُ الزَّوْجاتِ**: فَلا لوْمَ فِيها؛ بل هي من كمالِه، وقد امتنَّ سُبحانه بِها على عبادِه فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، فَجعلَ المرْأةَ سَكنًا للرَّجُلِ يسكُن قلبُه إِليْها، وجعل بينَهما خالِص الحبِّ، وَهُوَ المودَّةُ المقرُونةُ بالرَّحْمَةِ، وقدْ قال تعالى عُقَيْبَ ذِكْرِه ما أحلَّ لَنا مِنَ النِّساءِ وما حرَّم منهنَّ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ

وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

* **وفِي الصَّحِيح**(١) مِنْ حَدِيث جَابر، عَنِ النبيِّ ﷺ **"أَنَّه رَأى امرأةً فأَتَى زَينب فَقضى حاجَتَه مِنها، وقَال: إنَّ المرْأةَ تُقبِلُ في صُورَةِ شيطانٍ، وتُدْبِرُ فِي صُورَة شيطَانٍ، فإذَا رأى أحدُكُمْ امرأةً فأعجبتْه فليأْتِ أهلَه؛ فإنَّ ذَلك يرُدُّ مَا فِي نفسِه"**.

وَلَا رَيْبَ أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ قدْ حُبِّب إليه النساءُ، كَمَا فِي الصَّحيحِ(٢) عنْ أنسٍ عنْه ﷺ: **"حُبِّب إليَّ مِن دُنياكُم: النساءُ، والطيبُ، وجُعلتْ قرَّةُ عيني في الصَّلاة"**.

وأمَّا حديثُ **"مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ"** فهذا يرْوِيه سُويدُ بنُ سَعيدٍ، وقدْ أنكَره حُفَّاظُ الإسْلَامِ عليْه.

وكلامُ حُفَّاظ الإسْلامِ فِي إنْكَارِ هَذا الحديثِ هُو الميزانُ، وإليْهم يُرجَع فِي هَذَا الشأْنِ، وَمَا صحَّحهُ ولا حسَّنه أحدٌ يعوَّلُ فِي علْمِ الحديثِ عليْه ويُرجعُ في التصحِيح إليْه.

فَنَسْأَلُ الله العظيمَ ربَّ العرشِ الكريمِ أنْ يجعلَنا ممنْ آثر رِضَاه عَلى هَواه، وابتغَى بذلِك قرْبَه ورِضَاه.

* * *

(١) مسلم (١٤٠٣).

(٢) النسائي (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)، وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، وهذا هو مراد المؤلف (ابن القيم) من قوله: "كما في الصحيح" أي: أنَّ الحديث صَحَّ عنده، وليس المراد أنه في أحد الصحيحين، والله أعلم.

الفهرس